املي فارس ابرهيم



دار الريحاني للطباعة والنشر
هاتف ٢٨٧٥٧ و ٢٤٠١٩
بيروت

الطبعة الاولى

مقدمة

عندما نتحدث عن الاديبات اللبنانيات فحديثنا يتناول ، الى حد ما ، النشاط الادبي عامة في لبنان .

واذ اقول « الى حد ما » فلا اقصد ان الفعل العقلي عند النساء هو دونه عند الرجال من حيث الطاقة او الكفاءة . ان مثل هـذا الرأي بعيد عن ذهنيتي واعتقادي كل البعد .

ولكني ادرك انه ليس صحيحـاً التحدث عن نتاج اي مفكر والحكم على هذا النتاج دون ان نأخذ بعين الاعتبار الاجواء المنفتحة او المغلقة التي تدور فيها حياة المفكر رجلاً كان ام امرأة .

وما ينطبق على النتاج الفكري عند المرأة ينطبق عليه عند الرجل في حياتها العامة كمواطنين . الا انه يجدر الوقوف عند الوضع الخاص الذي وجدت فيه المرأة عندنا في الحقبات الماضية من تاريخنـا ، حيث دارت حياتها في اجواء ضيقة محدودة ، ولم يكن بالامكان ان ينطلـق انتاجها الفكري الا من هذه الاجواء فما استطاع ان يتحسس قضـايا المجتمع بشكلها الشامل العام ولا قضايا الوطن في نطاقها الكبير ، فـلا يمكن اذا ان يكون التحدث عن مثل هذا النشاط الفكري تحدثا عن النشاط الادبي عامة ، وهذا ما يفسر قولي « الى حد ما » .

كلنا يعرف ان المرأة ظلت طويلاً على هامش الحيـاة في اجواء مغلقة وهذا ايضاً هو السبب في ما سنراه من فرق في نتاجها اذا مـا

قيس الى النتاج الفكري في المطلق وفي ما نراه من تبسط في الكثير من الاحيان في البديهيات من الأمور عند اكثر الاديبات اللواتي سيتناولهن هذا الدرس .

الا ان بلداً كلبنان ، عانى قرون طويلة عبء السيطرة الاجنبية ، لا يصح فيه التفريق الجدي في نطاق الفعل العقلي بين المرأة والرجل ، او على الاصح لا يمكن ان تجيء فيه المقارنة بين العملين بنتائج فاصلة . فالاثنان تحملا نير الاستعباد ، وما المستعبدون ، نساء كانوا ام رجالاً ، الا في الهامش من الحياة ، او على الاقل هم على هامش الحياة من حيث مظاهرها الاساسية وتعبيراتها الصميمة .

ان التعبير الفكري من حيث هو فعل عقلاني يؤدي الى خلق مخطط للعمل ، ليس في الواقع سوى انطلاق الذهن الخلاق في اجواء من الحرية المنفلتة وفي مجالات التوق الى اخضاع عناصر الكون وسياق شؤون الحياة للارادة الواعية وتكييف اطار الحياة لنيل المرامي التي يشاؤها هذا التوق .

هذا برأيي التعبير الفكري من حيث هو فعل عقلاني . فهل لنا في لبنان معالم لمثل هذا التعبير ؟

هذا ما سنجيب عنه في ما بعد .

الا ان هنالك شكلاً آخر للتعبير ، واعني بــه التعبير عن الحالات الذاتية وعن العواطف الخاصة ، وهذا النوع من التعبير ليس عمــلاً عقلانياً صرفاً ، بل هو بث لمشاعر نفسية واخراج هــذه المشاعر من مطاوي النفس الخفية الى نطاق الحرف او الكلمة .

وهذا النوع من التعبير هو من شــأن من انطووا على ذاتهم او من شغلتهم الشؤون العاطفية عن سواها من الامور في الاجواء المنطلقــة

وغير المحدودة .

بيد انه ، حتى في هذا البث ، تفترض صيغة الاناقة والبلاغة الموشاة بالصورة الجميلة ليجيء استمتاعاً للذوق في اجواء من الجمال وروعة الفن وهذا ما نسميه بالادب الصرف .

الا انه حتى الجمال في التعبير والابداع في فن اخراج الصورة التعبيرية، يندران عند المغلوبين على امرهم - ولم اقل يستحيلان - لانهم يعانون مركبات نقص ومعقدات نفسية تفقدهم عنصر التسلطن على اجوائهم ، فلا تقوى ملكتهم على التحكم بالعبارة والتفنن بابداع الصورة ، اذ ان هذا في الغالب من شأن النفوس المستكملة عناصر التكوين الشخصي ، وكل سيطرة وكل استعباد من اي نوع : سياسياً كان ام حرماناً اجتماعياً ، يفقد العناصر الاساسية في تقوية هذا التكوين الشخصي ، فتكون المركبات وتكون العقد النفسية ،ويكون التردد ويكون الخمول فالاستسلام، حتى تأتي ساعة الانتفاضة الحتمية، ولنا والحمد لله بعض الآثار الخالدات لمثل هذه الانتفاضات ، وان كانت قلة ، ولكنها كانت من شأن من في يده المبادرة ، اي من شأن الرجل لا من شأن المرأة .

فلبنان الذي بقي قروناً طويلة تحت نير السيطرة الاجنبية ، لم يكن باستطاعته ان يتحف العالم بادب رائع جدير بان يستوقف انتباه العالم ولا بنتاج فكري من شأنه ان يخلق خطاً جديداً في المجاري الفكرية او ان يضيف شيئاً الى ثروة العقل في المطلق منذ قرون عديدة ، رغم ما أضافه الى العقل من ثروات في مجرى تاريخه السحيق ، ورغم انطلاقاته المشعة التي كادت أن تكون الوحيدة في العالم العربي في عصر النهضة ،ورغم مشعل المعرفة الذي ما يزال يحمله في هذا العالم

العربي كله وهو الذي تنطبق عليه الاعتبارات القاسية التي اشرت اليها والتي حالت دون استمرار انطلاقنا في دنيا الفكر .

وهكذا ظل اكثر كتاب لبنان وكاتباته يتيهون في مطلقات مبهمة غامضة، لا يستلهمون الارادة الواعية المدركة لقدرتهـــا على تكييف سياق شؤون الحياة ، بل يستلهمون المعقدات النفسية الذاتية في فردية تائهة ، لا شأن لها مع الحياة الاجتماعية او الوطنية ، ولا مع ما يترتب على كل عقل من جهد في مضمار بناء الاوطان .

وكان كلما سرى تيار فكزي في لبنان او من لبناني ، له شأنه من حيث المحتوى ، او من حيث رسم طريق جديد للشخصية الانسانيـة المواطنة الكريمة ، كان يحدث ذلك بفعل شخصيات نمت وترعرعت بعيداً عن اجواء الوطن المثقلة بمناخ السيطرة والاستعباد .

ورب قائل يقول ان الادب موهبة وليس للموهبة شروط معينـة لتوجد : انها ملكة تولد مع الموهوبين .

اجل ان الموهبة ملكة تولد مع الموهوبين .

ولكن ليتسنى للموهوب ان يفرض نفسه : ليتسنى له ان يترعرع وينطلق ، وجب ان تدور حياته في جو من الحرية لا كبت فيها ولا قيود ، وجب ان يحس نفسه سيد نفسه ، وان لا يشعر بخجل المسود ازاء سيده ولا يقلق حول الردة التي قد تحدثها انفلاتاته من المألوف في الامور في اوساط اسياده او المسيطرين عليه ، فهل هذا التحرر وهذا الانطلاق ينطبقان على المرأة ؟

وهل يجهل احد ان المرأة في الشرق اجمالاً – ومن هـــذا الشرق لبنـان – ظلت اجيالاً وأجيالاً تحت سيطرة الرجـل « سيدنا » ؟

ارجو أن اكون قد وفقت إلى تعيين وتحديد العوامـــل المعنوية والاجتماعية والسياسية التي اثرت على نتاج المرأة في الحقـــل الفكري – وعلى الرجل ايضاً – حتى اجيب عن التساؤل الذي أوردته آنفاً عما اذا كان لنا في لبنان معالم للتعبير الفكري من حيث هو عمل عقلي يكيف اطار حياة الانسان فيه ، – حتى اجيب بان لا ، ليس لنا في لبنان معالم تمثل هذا التعبير ، وانه على هذا الاساس ، لا يمكن ان يجيء النتاج النسائي الذي هو دون نتاج الرجل نظراً للاجواء المحدودة التي دارت فيها حياتها ، الا نتاجاً باهتاً ، في الكثير من الاحيـــان ، ليس له كبير شأن ، كما سنرى من خلال هذه الدراسة حول اديبات لبنانيات .

فالقلة منهن تناولت بالبحث اموراً خطيرة تتعلق بمصير الانسان او بمصير امة ، او بنظرية فلسفيـــة طرحت على البحث ، اللهم الا مي في كتابها «المساواة »وسنرى انه حتى ميّ ذاتها قد ضاعت في متاهات لم تعد تجد لها مخرجاً منها .. والا زينب فواز في الرسائل الزينبية وقد ناقشت في احداها هنا كسباني كوراني حول رأيها القائـــل بجمود المجتمع : فدللت على انها امسكت بخيط النظرية القائلة ان لا شيء يظلّ على حاله ، بل ان سنة الكون هي سنة التطور والتحـول المستمرين ، فكلتاهما خرجتا عن نطاق الانفعالات الذاتية وانطلقتا من البديهيات الى معالجة شؤون الانسان الجدية ومعقدات حياته الاجتماعيـــة ، كما تلمست قليلات سواهما بعض الحقائق الاساسية تلمساً ليس فيه التعمق المنشود ، وقد اقتصر نتاجهن في الكثير من الاحيان على جمع مقالات او احاديث لا لحمة فيها لموضوع واحد او لمشكلة درست .

واود قبل ختام هذه المقدمة ان اشدد على ان عـــدم تفوق المرأة

عندنا لا يعود الى عوامل فيزيولوجية ، بـــل الى الشروط التي رافقت حياتها كما تقدم ، فاورد بعض اسماء نسائية تحضرني الآن في العوالم المتحررة لمعت فيها نساء في حقل النتاج الفكري ، فاذكر الكاتبـــة الايطالية جينا لومبروزو في كتابها الضخم الذي يقع في ستمائة صفحة والذي كان موضوعـــه الاساسي التأكيد على ان الرجل ذاتي الاسرة ego - centriste وان المرأة ايثـــارية العطاء altrucentriste وتقع في هذا الكتاب الذي احدث ضجة كبرى في الاوساط الفكرية الاوروبية فصول تتنــاول فيها الكاتبة نواحي علمية عميقة وذات شأن .

اما الروائية الاميركية الشهيرة بيرل بوك فتعالج في روايتهـــا « الام » والتي تقع حوادثها في الصين ، الشروط المؤلمة والمعدمـة التي تدور فيها حياة المرأة في هذا الجزء من العالم .

ورواية الكاتبة الفرنسية سيمون ده بوفوار « الافواه التافهـــة » كان موضوع نقاد فرنسا الذين تنــاولوه بالدرس والتحليـل الجديرين بالكتب ذات الشأن .

ولا يزال اللبنانيون يذكرون الشريطين اللذين اخذهما المخرجون عن الروايتين (ذهب مع الريح) و (ابراج هورلفان) واللذين صادفا نجاحاً منقطع النظير وقد عرضا في صالات بيروت . وهذان المؤلفان وضعتهما امرأتان .

واملي برونتي وسواها وسواها .

اذن فالمرأة بجد ذاتها قادرة ، اذا ما انطلقت من قيودهـــا ، من جميع قيودها ، على ان تجاري الموهوبين والعباقرة .

لقد بقي الرجل ذاته زمناً طويلاً يرزح تحت نير القيود ، وقـــد

لزمه وقت امتد في الزمن حتى تحرر من ذيول هـذه القيود ، فلنعط المرأة مجالاً لهذا التحرر وبعد ذلك لا يظل لها اي عذر اذا مـــا هي بقيت متخلفة في هذا الميدان .

انها على طريق هذا التحرر ،لتنطلق اذن ولتجار العباقرة في مجال النتاج المرموق .



وردة اليازجي

وردة اليازجي

١٨٣٨ - ١٩٢٤

اذا كان ما تنبه فيه نفس المتطلع الى عيني وردة اليـــازجي في صورتها ، من ابعاد لا متناهية تحمله الى عـالم الحس البشري العميق الشمول ، هو ما كانته عيناها ، لا ما كانه فن واضع تلك الصورة[1] فان ورده اليازجي كانت جميلة وجمالها كان معبراً ، يحمل في اطلالته اطيافـــاً من خواطر انسانية رهيفة لا يمكن إلا ان تترك في النفس احاسيس مبهمة لا يحددها ادراك ، ولعلها هي الخيوط الخفية التي نقول فيها انها تجند ارواحاً لارواح ، ولعل هذا النوع من الجمال هو الجمـال الصحيح ذو الطابع البشري الاسمى .

واذا كان لعوامل البيئة التي نشأت فيها وردة اليازجي من تأثير على تكوّنها بحيث اصبحت الشاعرة التي نعرف ، واذا كان لهذه البيئة في اسرة لها شأنها المعروف في احيـاء اللغة واستمرار شيء من تراث العربية في عهد الانحطاط ، اذا كان لتلك البيئة ذلـــك التأثير على الشاعرة ، فاني اكاد ان لا اشك في ان مزاجها الطبيعي ، وعلى سيمائها ما عليها من تعابير بشرية عميقة ، هو العامل الجوهري الاصيـل الذي جعل منها تلك المعبرة الصافية عن بيئتها .

إلا اني أرى فوق ذلك ان للبيئة بمفهومها الواسع ، واعني هنـــا

(١) صورة لها في دار الكتب .

المجتمع الذي كانت تعيش فيه وما كان يسيطر عليه من مناخ فكري، تأثيراً قد اسمح لنفسي بان انعته بالسلبي من حيث تحديد الآفـاق التي انطلقت فيها شاعريتها .

فقد عاشت الشاعرة في عصر الانحطاط الذي لم نجد فيه نتاجـاً فكرياً ذا شأن ، ليس عند الشاعرة فحسب ، بل عند الكثيرين من معاصريها ، حتى عند اليازجيين انفسهم الذين كان لهم فضل كبير في انبعاث اللغة ولم يكن لهم شأن في خلق مجار فكرية جديـدة ، او ابداع ادبي مرموق .

وهكذا فان قارىء شعر وردة اليازجي لا يلبث ان يطالعه فقر في المحتوى والمادة ، كما سنرى ذلك في سياق الاستشهادات التي سنأخذها من قصائدها في الاطراء والغزل والرثاء .

وان ما يسجل على وردة اليازجي فيما يسجل عليها من مآخـذ ، انسياقها وراء ما يسمى بشعر المناسبات .

فما اكثر ما نعثر في ديوانها « حديقة الورد » على قصائد نظمتهـا لمناسبات الزواج والتنصير والترحيب ، بحيث يغدو شعرها كلامـاً منظوماً اكثر منه ابداعاً او شعراً تختلج فيه الاحاسيس العميقـة وتتراقص في اجوائه الصور الرائعة .

ولكن أليس هو ما كان منتشراً في اسلوب النتـاج الادبي يومذاك ؟

وظاهرة اخرى تقفز الى ذهن القارىء قفزاً ، وهي افتقارهـا الى التنويع في المادة ، ولجوؤها الى تكرار الفكرة الواحدة في قصائد عدة .

فاننا نراها مثلاً ، اذ تودع عزيزاً او ترحب بعودة حبيب تلمح الى

افول البدر وظهوره كقولها في قصائد مختلفة لمناسبات متشابهة .

يا بدر غبت اليوم عنا راحلا   والبدر ليس يغيب شهراً ان افل

وفي ثانية :

فقلت لا تعجبوا منها اذا انتقلت   فهكذا البدر في الابراج ينتقل

وتقول في رسالة الى صديقة كانت في سفر :

يا بدر كم غاب عني اشهرا   والبدر شهرا لايغيب عن السما

وفي سواها :

ان كان قد بان عن عيني فلا عجب   اذا اعتبرت فهذه عـــادة القمر

وعندما ارتقى البطريرك كليمنتوس يحوت الى كرسي البطريركية هنأته قائلة :

تلألأ افقنـــا بعد الظلام   بطلعـــة ذلك البدر التمام

رقي اوج العلاء وليس بدعا   فان البدر في اعلى مقـــام

ولما زارت تاج الشهابية بعد عودتها من بيروت (معروف ان وردة اليازجي امضت معظم سني حياتها في الاسكندرية) قالت :

هذه حبيبتنا التي عـــادة   عدنا بمنظر حسنها نتمتع

الورد عـــادته يزور محبه   والبدر عادته يغيب ويطلع

اني ارى في هذه الابيات اكثر من سيئة تكرار المادة . ارى فيها كثيراً من المعاني الصبيانية : (الورد عادته يزور محبه ...)

الا ان كثرة استعمالها الاستشهاد بافول القمر وظهوره ولجوئها الى المعاني الساذجة لم يحل دائماً دون توفيقها بالتماعـــات طريفة في بعض الاحيان كقولها مرحبة بالسيد سميث الاميركي :

تبدى الهنا والهم اضحى مبددا

وقد صاح في الاغصان طير وغرد

من الغرب قد وافى يضيء بارضنا

وهل قبله بدر من الغرب قد بدا ؟

لا شك في ان في هذا البيت الاخير فكرة حلوة .

وفي قصيدة اخرى نجد هذا البيت الجميل :

البدر يطلع في الدجى عجبا لبدر في النهار

وفي بعض من قصائدها التماعات اخرى حلوة ، فيها شيء من الشاعرية الدقيقة ، لكنها لا تعدو ان تكون بيتاً واحداً في قصيدة او شطراً واحداً احياناً :

يا ربا لبنان حيّاك الحيا وسقا تربك هتان الغمام

وفي هذا الشطر من قصيدة توصف فيها حنانها الى ايام الصبا صورة حلوة وبراعة فنية .

حيث كان الزمان طلق المحيا ...

هذا ولم تلج الشاعرة باب شعر الغزل بمعناه الصحيح لكونها امرأة الا ان بعضاً من اصدقائها اقترح عليها ان تعارض ابن زريق البغدادي فاجابت لتظهر مقدرتها في نظم القريض ، قالت :

صبّ جرت كغوادي السحب ادمعه

وجداً وذابت من الاشواق اضلعه

له من الدمع بحر والفؤاد به

أضحى غريقاً ونار الحب تلذعه

ما زال يصبو إلى ربع أقام به

قلب له ساقه شوق يشيعه

يعلل النفس في آماله طمعاً

من اللقاء ولكن خاب مطمعه

يجني ثمار البكا والسهـــد من شجر
للحب في القلب لا في الـترب يزرعه
عجبت من ادمع كالسحب هاطـــلة
على غليـــل فؤاد ليس تنقعه ...

هذا من شعرها في مجال الاطراء او الغزل .

اما شعرها في مجال الرثاء فانه كثير التقليد لرثاء الخنساء وان خلا من شجوى هـذه ومن عفوية الحس العميـق الذي كانت ترسـله على سجيتها .

ولعل الاشارة هنا الى مـــا كابدته وردة اليازجي من مآسي في حياتها والى لمحة خاطفة عن سيرتها تفيد من حيث اطلاع القارىء .

فوردة اليازجي ولدت في كفرشيما لبنان في كانون الثـاني من عام ١٨٣٨ ، وهي ابنة الشيخ ناصيف اليازجي المشهور الذي شاء ان يعن بلغتها فدرّسها اصول العربية في كتابيه « فصل الخطاب » و « نقطـة الدائرة » وكان يراسلها ويطلب اليها ان تجيبه شعراً . فبـدأت تنظم وهي بعد في الثالثة عشرة من عمرها .

لقد تعلمت وترعرعت في بيروت حيث تزوجت فرنسيس شمعـون سنة ١٨٦٦ وأنجبت خمسة أولاد ، صبيين وثلاث بنات . كانت تحب الزي اللبناني الذي كان مألوفاً في أيامها فظلت تلبس الطربوش وكانت تتأزر احياناً ، وبقيت تنتسب الى اسرة ابيها .

وفجعت باحباء كثيرين من اسرتها : اشقائها وشقيقاتها ، والدهـا ووالدتها ، زوجها وابنتها وابنها ، وقد رثتهم جميعاً ، ولا عجب فقـد عاشت ست وثمانين سنة ٨٦ .

بعد وفاة زوجها ذهبت الى الاسكندرية سنة ١٨٩٩ حيث درست

في مدارس لطوائف مختلفة منهـــا مدرسة راحيل عطا زوجة بطرس البستاني ، وعبد الله الوتوات الدرزي المسيحي [١] وسعـدى كركور اليهودية المتنصرة حيث تعلمت اللغة الفرنسية .

اما من اشعارها في الرثاء فنقتطف بعض الابيات من رثائها لاخيها فارس :

يا بين ويحك كم أشعلت نيرانا طيّ القلوب وكم ادميت اجفانا

الى ان تقول :

ألبستني ثوب حزن لست أخلعه
حتى ابـــدل منــه فيه أكفانــا
(قد كنت أشفق من دمعي على بصري
واليوم كل عزيز بعدكم هانا)

وأكثر ما يظهر التياعها على والدها الشيخ ناصيف اليازجي إذ تقول :

وجارت على ضعفي الليالي واوقدت
بطيّ الفؤادي من نوائبهـــا جمرا
وقــد ألمتني الحادثات بصرفهـــا
كما آلمت خنساء اذ فقدت صخرا
فقدت ابي ، مـــالي وللعيش بعده
فموتي من عيشي غدا بعـده احرى

وفي رثاء شقيقتها راحيل تقول :

ابى الله ان انسى وكيف وفي دمي
قدامتزجت احزان خنساء على صخر

---

(١) كما ورد في كراس الاستاذ جورج باز الذي وضعه لسيرة حياتها .

قد اعتاد قلبي الحزن من صغر سنه

فلم يدر ما طعم المسرّة في العمر

وفي رثاء رفيق عمرها :

أترى ما اكتفت صروف العوادي

بسهام اصمت صميم فؤادي

كلما كاد يضمد الجرح ترد

ني بجرح مفتت الأكباد

نكبة بعد نكبة بعد أخرى

كاتصال الاسباب بالأوتاد

وأبى الدهر أن يمن بنظم

غير نظم الرثاء والتعداد

لقد كتبت وردة اليازجي نثراً ايضاً في صحف لسان الحال والضياء والاجيال وفتاة الشرق ومجلة سركيس

وفي هذه الابيات من قصيدة الى صديقة كثير من النثر الموزون غير الجميل :

يا غائب والقلب سار بأثره   شوقي مقيم في فؤادي كالجبل

(هل في هذا التشبيه شيء من روعة الشعر) ؟

ان كنت غبت عن العيون مهاجراً   فجميل شخصك في فؤادي لم يزل

وفي متهاتها الفلسفية تقول :

الموت للناس كالجزار للغنم   فليس يترك من طفل ولا هرم

كأس يدور علينا ساقياً ابداً   وليس يترك انساناً من الامم

*

قد لازم الجفن منا السهد اذ لزمت
جفونـــه النوم دهراً غير منصرم
قد كانت الناس ترجوا ان تراه غداً
فسابقتهـا المنايا ربـة الهمم (؟)

وفي رثاء الامير امين ارسلان ترد احياناً ذات المعاني التي سبقت في الأبيات الآنفة :

كأس المنية دائر بين الورى   يسقي الكبير ولايفوت الاصغرا
ما هذه الدنيا بدار اقـــامة   الا كطيف الحلم في سنة الكرى
كل على هذه الطريق مسافر   لا بد منه مقدماً ومؤخـــراً

*

هذا هوالسيفالصقيل اصابه   سيف من القدر الذي قدّرا

*

يا من تيتمت البلاد لفقده   وتوشحت ثوب الحداد الاغبرا
يا ركن لبنان العظيمعليك قد   كادتربى لبنانان تتفطر

*

لو كان يظهر للسحابضريحه   الا على صفحـــاته لم يمطرا

وفي تقريظ لديوان خليل الخوري تقول:

انشأ الخليل لنا كتاباً ضمنه   زهر الربى منه الفلا يتعطر

(لا ارى اثراً للشعر في الشطر الاول من هذا البيت).

من كل ما فيه نراها سكرا   فاذا سمعناها نراها تسكرا

(الفكرة جميلة) .

ولوردة اليازجيبعض القصائدالايقاعية التي يمكنانشادها، منها:

طول البعاد مزّق صبري يا غائبين   يوم النوى قصر عمري هل من معين
والدمع قد قرح جفني يا عاشقين   وذبت من فرط الحزن يا راحلين

*

وفي قطعة اخرى :

لازمة

رفقا بضناك عاد الوجد فيه عظيم   فانعم بلقياك تحييني والله عظيم

دور

نـثرت درا على العشاق باللفظ
نفثت سحرا اصبت القلب باللحظ
متعت ثغراً لمـاه منتهى حظي
اودعتني في لظى شوقي وانت نعيم

وعلى وزن يا ميمتي ، يا ميمتي آه يا يما
قالت :

لازمة

ابكي انوح انتحب   والعقل مني قد سلب
ومدمعي فيه سكب   لم تطق فيه لوعتي

دور

انا بعشقي مفرد   وفي الهوى مقيد
وانت في المقصد   ومنيـتي وبغيـتي

وفي غناء كلحن غناء للاطفال قالت :

لازمة

كم معن قد رماه   سهم لحظ من جفاه
كيف يرنو لسواه   ان يدنو يصيده

دور

فارحموا مضنى عليلا   في الهوى صار قتيلا
واللمى يشفي غليلا   فانعموافالوصل عيده

دور

لا تلمني يا عذول   لست تدري ما تقول
انتلوتدري الرسول   يا بروحي لو تفيده

اما اثارها فقد جمعت في ديوان سمي « حديقة الورد » اعيد طبعه مرّات .

طبع في المرة الاولى سنة ١٨٦٧ وكان يقع في ٤٦ صفحة . وفي المرة الثانية في سنة ١٨٨٧ فاصبح ٥٨ صفحة ، ثم المرة الثالثة ، بعد ان اضيف اليه ما كانت نظمته حتى سنة ١٨٩٤ ، واخيراً في مصر سنة ١٩١٤ .

اما هذه الظاهرة ، ظاهرة اعادة طبع مؤلف غير علمي ولا يحوي على الابداع والعبقرية الخارقين اكثر من ثلاث مرات لكاتبة ما تزال على قيد الحياة كما هو شأن ديوان وردة اليازجي الذي اعيد طبعه اربع مرات وهي ما تزال على قيد الحياة ففريدة من نوعها .

واني اعزو هذه الظاهرة الى كون المؤلفة « امرأة » وهذا حدث كان يعتبر معجزة في عصر وردة اليازجي وإن كان قد برز اسم زينب فواز الى جانب اسمها وهي الكاتبة التي ستحتل مكانة رفيعة في دنيا الادب والفكر كما سنرى في الفصل القادم .

والذي ينتهي من قراءة ديوان « حديقة الورد » يخرج بشعور واضح بان الحزن هو الذي كان يغلب على شعور وردة اليازجي ، ولا غرو فوردة اليازجي كابدت الكثير من المآسي في حياتها كما يتضح

من سياق سيرتها .

لقد شاء الدهر ان يكون اللون الغالب على نتاج هـذه الشاعرة لون الحزن والالم والغصص .

هلا لنا ان نقول : حبذا لو ان الايام كانت مشرقة لهـا ، علّ مخيلتها كانت تفتقت عن نتاج ابقى على الدهر ، ليس فيه تقليد لخنساء باهت ، وليس فيه انطباعات لعصر متحجر ربما لم يترك لها الحزن مجـالاً للانفلات من اجوائه والانطلاق وراء تنمية ملكة الشعر التي كانت لا شك من مظاهر مواهبها الطبيعية .



زينب فواز

١٨٥٠ - ١٩١٤

في تبنين ... تلك البلدة الوادعة على كتف جبـل عامـل ، وفي احضان الاقطاعية التي نشرت الجهل والجدب ، وعقمت ادرانهـا مـا استطاعت من بذور الفكر ، فالناس ، قطعانـاً كالمواشي البشرية ، بينهم وبين معالم الحضارة جدران كثيفة من الغبـاء الى حـد تقديس الاصنام ... في تبنين هذه احدى المراكز الجنوبية التي انطلق منهـا ، برغم الجهل والاقطاعية ، وانعدام معالم الحضارة ، اكثر من عقل نير واكثر من موهبـة فذة – في تبنبن هذه ولدت زينب فواز سنة ١٨٥٠ .

يقول الاستاذ محمد يوسف مقلد ، في مجـلة العرفان ، الجزء الثالث المجلد السابع والاربعون ، تشرين الثاني سنة ١٩٥٩ ص ٢٣٣ .

« ترى من اين جـاءت هذه الفتاة بميلهـا المبكر « النـادر » الى الكتب ؟ فلا عن طريق الوراثة عرف انها اكتسبت هذا الميل من اب وأم ، ولا عن طريق البيئة التي كانت الامية فيها طابع الحياة العامة كلها ... فحتى اوائل القرن العشرين كان في جبل عامل قرى كثيرة تعد الامية فيها مئة بالمئة ... فكان اذا ورد لاحد من هـؤلاء القوم رسالة من المهجر او ورقة من الحكومة ، يحملها قاصداً قرية اخرى قد تكون نائية ، لكي يجد من يقرأ له ...! »

إلا أن السيدة فاطمة الخليل سيدة قصر تبنين التي اعجبت بذكاء الصبية الخارق تبنتها وعلمتها القراءة والكتابة ، فغيبت القرآن شأنها بنات الاسر الكبيرة في تلك الأيام .

غيبت القرآن ، ولكن لم تقرأه كلمات فكت بها طلاسم الحرف وحسب ، بل فهمته ووعته ، فوعت معه معالم الذات الانسانية فيها ، وشاءت ان تكون بشراً ...

فكان لها جوها ... وكانت لها كتبها ... وكانت لها ارادتها ... وكان لها تعبيرها عن كل ذلـــك . فألفت شعراً ونثراً ، وجالت في مختلف الموضوعات والشؤون العامة ...

يقول ايضاً الاستاذ محمد يوسف مقلد في مجلة العرفان الجزء والمجلد ذاتها ص ٢٣٤ : « الانسان ابن اسبابه ومسبباته اكثر مما هو ابن امـه وابيه « والاسباب » هي التي تصنع ظروف الانسان وتؤثر في مجرى حياته تأثيراً جوهرياً ، وتجعله سعيداً او شقياً ، عظيماً او دنياً ، دعياً او نبياً ..! »

« ومن الاسباب التي كونت شخصية زينب فواز عصاميتها الفذة التي كان القلم رائدها الى الظهور ... فاشتغلت بالكلمة المفيدة خطيبة وكاتبة وشاعرة .

« وليس أعجب ولا أغرب من امرأة تتصف بهذه الصفات في أيام كأيام زينب فواز فقد كانت جميع صفـات الحيـاة غير غريبـة ولا مستهجنة على المرأة ، الا أن تكون متعلمة واديبة » .

يقول ايضاً الاستاذ عارف الزين الذي تولى امر اطـلاع الأوساط الفكرية على هذه النابغة في صفحات مجلته العرفـان والذي كان له الفضل الاكبر في ابراز هذه الشخصية الفـذة ، في ص ٤٥٥ تاريـخ

آذار سنة ١٩٢٣ :

« من لم يسمع بذكر هذه النابغة العاملية في هذا القرن سواء في سوريا او في مصر أو في سائر الاقطار العربية . نعم ربما جهلها كثير من العامليين الذين لم يعرفوا عن نابغتهم ولا عن نابغيهم شيئاً مذكوراً ، بل لم يفقهوا احوال بلادهم نفسها :

« هي زينب بنت علي بن حسين بن عبد الله بن ابراهيم بن محمد بن يوسف فواز العاملي » .

ويقول في مكان آخر ، وهو قول يتناقض مع ما ورد في كتاب السيدة فتحية محمد ، « بلاغة النساء في القرن العشرين » ومع ما ورد في مجلة « الحسناء » للاستاذ المرحوم جرجي نقولا باز ، ولا ادري اي هذه الاقوال هو الصحيح ، بل اظن قول الاستاذ عارف الزين هو الأصح لانه تولى دراسة حياة هذه الاديبة دراسة وافية تناولت جميع نواحي حياتها، سواء أكان بقلمه هو او بقلم سواه ممن تناولوا موضوعها بالدرس على صفحات مجلته العرفان ، يقول :

« ولما كانت المترجمة في تبنين مقر حكومة علي بك الاسعد الشهير، اتصلت بزوجته السيدة فاطمة التي ترجمتها في كتابها « الدر المنثور » ترجمة حسنة .

« وتولت خدمتها ، ثم اتصلت باخيها الاصغر خليل بك الأسعد وتزوجت برجل من حاشيته ، وقد رأيناه منذ خمس عشرة سنة في دار كامل بك الاسعد وهو آنئذ في سن السبعين ، واخبرنا البك المومى اليه ان هذا الخادم الشيخ تزوج بزينب فواز ثم طلقها لعدم امتزاج طبعها » .

أما الاستاذ جرجي باز ، الذي كان بشخصه أنسيكلوبيدية ناطقة متحركة ،

والذي أرسلت السيدة زينب هذين البيتين تمدح فيها مجلته الحسناء :

أذع آي الثنـــاء على كـــريم
سمــا في حب اصـلاح الغواني
« فحسناء » العلى قد انعشتنـــا
وسعي « الباز » موفور الاماني

اما الاستاذ باز فيروي ، انه لما كانت بعد في بلدتها تبنين ، وبدأت شخصيتها تبرز ، شاء احد انسبائها ان يتزوجهـا فصدته ...وزينب لم تكن جميلة ولا أنيقة .

وغاظ النسيب ان تصده زينب ، فاستدرجها يوماً الى نزهة في غابة خارج البلدة . وهناك ربطها الى شجرة وراح يجادلها ليقنعهـا بالزواج منه ، ثم يهددها بالقتل ان لم تفعل ، وهي تجاريه بالجدل ، رابطـــة الجأش ، مالكة أعصابهـــا ، محاولة إقناعه بانه من الخير له ان لا يتزوجها . ولم يفت هذه النابهة ان اقل بادرة عنف قد تدفع بنسيبهـا الى عمل جنوني اقله الاعتداء عليها ثم قتلها ...

وفيما هما كذلك سمع وقع خطوات تقترب من الغابة ... فلم تظهر زينب أي اهتمام للامر ، كي لا يثب نسيبها بحركة عفوية ويقتلها ثم يفر ...

وإذ الخطوات تدنو حتى لتحازي المكان الذي كانا فيه وقد اتضح انها خطوات « مكاريين » تظاهرت زينب بالهدوء واللامبالاة ، فحوم السكون في كل جانب ، واحتواهمـا الصمت المطبق الا الخطوات . في هذه اللحظة بالذات أرسلت زينب صيحة مدوية اجفلت نسيبهـــا فهرول مذعوراً ، وسمعها المارون فوثبوا نحو مصدر الصوت وفكوا وثاق زينب . فقصت عليهم قصتها ورجتهم ان يدعوهـــا ترافقهم الى

بيروت لانها لم تعد مطمئنة الى مصيرها في تبنين .

ولما ادركوا بيروت انفصلت عنهم في محـلة البسطة ، وراحت تطرق الابواب سائلة الاستخدام . فاستخدمتها اسرة يوسف حمدي يكن المصرية .

ولم يمض وقت حتى تزوجت احد رجال حاشيتهم لترافقهم الى الاسكندرية .

وهناك في الاسكندرية ، استرعت انتباه حسن حسني باشا صديق اسرة يكن الذي رجا صديقه ان يستدعي استاذا ليُعنى بتعليمها.

وقد ذاع صيتها يوم راحت تراسل الصحف ، معالجة شتى المواضيع الاجتماعية والنسائية بعقل ثاقب ووعي صحيح وجرأة صادقة . وكان ذلك عهد اطلالتها على عالم الأدب ... فما لبث صيتها ان ذاع بين قراء العربية . وكان ممن اعجبوا بادبها اديب نظمي الذي كان يومذاك اديب دمشق ... فراسلها وراسلته ، وانتهى بهما هذا الاتصال الفكري إلى الزواج . إلا أن زواجهما لم يطل ، فافترقا وعادت زينب الى مصر مهد ولادتها الادبية .

واننا لنجد لها أثراً في كثير من الكتب التي تتناول الحركة الادبية الحديثة بالدرس والتحليل .

منها كتاب «الاعلام» لخير الدين الزركلي ، و«معجم المطبوعات» ليوسف اليان سركيس « وأعلام النساء » لعمر رضا كحاله ، و«القصة في الأدب العربي الحديث » لمحمد يوسف نجم ، و«بلاغة النساء في القرن العشرين» لفتحية محمد [١] .

واذ الج الآن ناحية تناول اثارها بالدرس يؤسفني أن أعبر عن ألمي

---

(١) يسر لي هذه المعلومات الاستاذ يوسف اسعد داغر .

العميق ودهشتي للصعوبات القصوى التي عـــانيتها لافوز ببعض من مؤلفاتها او مؤلفات سواها من الاديبات الراحـــلات اللواتي يتناولهن هذا الدرس ، فبعد مشقات لن اتبسط بسردها ولن اتناول بعض المؤسسات ، التي يفترض وجود مثل هذه الآثار فيها ، باي نقد ، لم افز الا بالقليل اليسير منها .

اما مؤلفاتها فهي : رواية « الملك قوروش » التي نجد عنها في مجـلة العرفان المجلد الثاني ص. ٢٢٠ بقلم الاستاذ عارف الزين ما يلي :

«امــا رواية « الملك كورش » فهي من أحسن الروايات مغزى ومعنى ، غرامية ، تاريخية ، جمعت الفائدة والفكاهة في قرن ، وصورت قبح العبادة المجوسية وحسن الوحدانيــة ابدع تصوير ، وفيهـا سقوط دولة الماديين وحلول دولة الفرس محلها ، واستيلاء الملك كورش عليها وعلى مملكتي نينوى وبابـــل ، وانقراض هاتين المملكتين العظيمتين واندماجهما في طي مملكة فارس . كل ذلك كان بتأثير الغرام وفتك تلك الاجفان السقام بقلوب الملوك العظـام ، وحبذا لو كانت فصول الرواية الأخيرة أكثر اسهاباً ، فان بها ايجازاً مخلاً » .

« والدر المنثور في طبقات ربات الخدور » . ألفتــه نثراً وضمنتــه اربعماية وخمساً وثلاثين صفحة درست فيه ترجمـــات حياة شهيرات الشرقيات والغربيات .

« والرسائل الزينبية » وهو كتاب يقع بمايتين وثمانيـــة عشرة صفحة ، جمعت فيه أكثر ما كتبته في المرأة وحقوقها ومكانتهـــا الاجتماعية .

اما أراؤها في المرأة فكانت اراء جريئة متحررة تقدميـــة الى أقصي حدود التقدمية . وما أكثر مــا كانت تنتفض غاضبة ثائرة ،

اذا قرأت او سمعت ان واحدة من بنات جنسها أعلنت رأياً فيه شيء من التحفظ او من التحديد بالنسبة الى حقوق النساء .

ونرى في احدى رسائلها الواردة في كتابها « الرسائل الزينبية » بعنوان « الانصاف » رداً عنيفاً على الاديبة هنا كوراني ، التي أخذت على نساء انكلترا طلبهن التدخل في الامور السياسية ، اذ قالت « ان المرأة بطبيعتها ومزاجها إنما خلقت لتربية الاولاد وإدارة الشؤون المنزلية ، ولا يجوز لها ان تتخطى هذا الميدان ، لان هذه السنة قد سنها الله لها ، ولو تجاوزتها لتغير نظام الكون ، وتبدلت نواميس الطبيعة . الخ » ... فانفجرت السيدة زينب فواز المؤمنة بنظام التطور تقول : « ان الانسان قوي بالفعل ، يقدم على الصعاب يذللها بقوة ذكائه ، ويهجم على الامور ، فتنقاد له طوع بنانه ، وخضعت له جميع الموجودات ... ولولا الحزم لما ازدهر العمران كما هو الآن الخ » ... أليس في هذا القول تحسس قد يكون بديهي ، ولكنه تحسس على كل حال بحقيقة قدرة الانسان على ان يخلق هو مجتمعه ، وأن الجمود ليس من طبيعة الكون ولا في أنظمة المجتمعات . وان القول بسنة الطبيعة على انها سنة جامدة لا تتغير ، في مجال التحدث عن المجتمع البشري قول فيه كل الجهل لسنة الطبيعة ذاتها ونواميسها ، إذ ان كل ما في الكون خاضع لسنة التطور والتحول المستمرين ؟ أفليس رائعاً ان تكون زينب فواز وعت هذه الحقيقة العلمية ؟

وقد أرسلت هذه الزفرة في سياق مقالها ذاك قالت ،

(دواءك فيك وما تبصر وداءك فيك ولا تشعر)

واننا نعثر في هذا المقال الطويل على التماعات جد قيمة من حيث تفهم الكاتبة لمجرى الاحداث التاريخية في مجال التطورات الاجتماعية .

ولما انعقد مؤتمر الاتحاد النسائي العالمي في سانتياغو عام ١٨٩٣ لدرس شؤون المرأة وحقها بالتعليم ، صوت المؤتمرات على قرار يرمي الى تحديد تعليم المرأة باعتبار ان مجال نشاطها محدود في بيتها وأسرتها . وقد مثلت السيدة هنا كوراني نساء سوريا فيه . فانبرت يومذاك زينب فواز في مصر ، تناهض هذا القرار وتنتقد بعنف تخاذل اللواتي أشرفن على المؤتمر مشددة على اطلاق المرأة في جميع مجالات النشاط الانساني ، ولاسيا في ميدان العلم .

ولما نعلم ان ذلك جرى في اواخر القرن التاسع عشر ، ندرك مدى قوة تلك الشخصية النسائية التي انبرت توجه نساء العالم وتحثهن على الكفاح من اجل فك جميع قيودهن.

ونعثر في رسالة لها بعثت بها الى الاستاذ عارف الزين يوم اهدته نسخة من كتابها « الدر المنثور » على المقطع التالي الذي يدلل على مدى قناعتها بضرورة اطلاق المرأة في جميع مجالات النشاط الانساني، تقول مجيبة على انتقادات :

« اما ما ذكرتموه من الانتقاد على طلبي رد حقوق المرأة فاني جعلته طلباً عمومياً وليس مختصاً بنساء الشرق ولم اتعد حقوق الشريعة ، فارجو ان تمروا النظر ثانية على الرسائل حتى يتبين لكم الغث من السمين .

«اما ما جال في فكر سيادتكم من ان المرأة لا تقدر على ايداء وظيفة الرجل فهذا غلط ايها الفاضل لان نساء الغرب فقن الرجال بمراحل ، واما نحن فلا يمنعنا الحجاب عن الاشتغال باعمال الرجال . وقد ذكرته في احدى رسائلي . ولو ان الاطباء منعوني من اشغال فكري بالكتابة لسبب ما ألمّ بعصب عيني اليسرى من التعب لكنت

«اظهرت لكم افكاري من هذا القبيل . واما اختصار رواية «قورش» فلكم فيها الحق لاني اجبرت على ذلك من ملتزمها فاختصرتها وحذفت الاشعار منها ولكن ندمت بعد طبعها من حيث لا ينفع الندم . »

ولها في المسرحية تآليف ، منها « الهوى والوفاء » وهي مسرحية ذات اربعة فصول يقول الاستاذ محمد يوسف مقلد انها لم تطبع وظلت بين مخطوطاتها الكثيرة .

ورواية « حسن العواقب او غادة الزاهرة » طبعت سنة ١٨٩٩ ويقول الاستاذ محمد يوسف مقلد انه يوجد منها نسخة في المكتبة الظاهرية في دمشق تحمل رقم (م — ٦٣٩) وتقع في ٢٣١ صفحة من القطع المتوسط ، تمثل عادات وحالات بعض عشائر جبل عامل في القرن الغابر ، كما تصور الشجاعة الوائلية والشهامة العربية .

وقد ألفت شعراً ولها ديوان لم نعثر عليه . الا اننا نلتقي ، لدى مطالعتنا « الرسائل الزينبية » ببعض من اشعارها كالابيات التالية فنراها تجول في متاهات فلسفية حول الوجود ، فتقول :

بدء الحياة وجود حيث نغشاه
نظل نرجو وما نرجوه نخشاه

والمرء في جوهر الدنيا حكى عرضا
يزول عنها وتبقى عنه دنياه

والعيش في كرة الغبراء مشغلة
بين الحوادث والعقبى قصاراه

والجمع مهما صفت ايام نضرته
فان تبديد ذاك الشمل عقباه

والسعي في الدهر آمال يمر به
عمر تحيل امـــانيه مناياه ...
لا شيء من زينة الدنيا لساكنها
سوى محاسن ما تبقيه ذكراه

وكتبت مزهوة ، على غلاف كتابها « الدر المنثور في طبقـــات ربات الخدور » البيتين التاليين :

كتابي تبدى جنة في قصورها تروّح روح الفكر حور التراجم
خدمت به جنسي اللطيف ، وانه لا كرم ما يهدى لغر الكرائم

وكتبت عن قلعة تبنين « التي افنت الاجيال ولم يؤثر على سوارها» فقالت :

يا ايها الصرح ان الدمع منهمل
فهل تعيد لنا يا دهر من رحـــلوا
وهل بقي فيك من ينعي معي فئة
هم المقـــاديم في يوم الوغى الاول
قد كنت للدهر نوراً يستضاء بـه
اخنى عليك البلى يا ايها البطـــل
كم زينتك قدود الغيد رافـــلة
بالعز تسمو ووجه الدهر مقتبـل
ابكيك يا صرح كالورقاء نادبة
شوقاً اليهم الى ان ينتهي الاجل
قد كنت مسقط رأسي في ربى وطني
ان الدموع على الاوطان تنهمـــل

تبنين ان كنت في بعدي على حزن
فاليوم يوم رجوعي القلب يشتعل
وقفت وقفة مشتاق به شغف
عليّ . ارى امرأً يحيا به الامـــل
اذ الاحبة قد سارت رحـــالهم
فزاد شوقي كما قلّت بي. الحيـــل
فالنفس شاكية والعـين باكية
والكبـــد دامية والقلب مشتعل
اعلى « هيوسنت » ابراجها عجب
تصارع الدهر لا ضعف ولا ملل

وقالت في ازمة روحية :

امنت الى هذا وذاك ، فلم اجد
من الخلق من ارجوه في عالم الحس
وما رمت من ابناء دهر معـاند
أخا ثقة ، الا استحال إلى العكس
فـــاصبحت في ريب بمن شطا ودنا
ولو كان في المريخ ، او جبهة الشمس
وايقنت ان لا خل في الكون يرتجى
من الناس حتى كدت ارتاب في نفسي

يقول الاستاذ محمد يوسف مقلد ان زينب فواز قد شطرت هذه الابيات .

اما حياتها فتتخللها حوادث طريفة ،تدل في كل حال على شخصيتها القوية واتساع مداركها .

ويروي جورج زيدان ، انه كان جالساً مرة الى صديقه ايليا حنيكاتي فدخلت عليهما زينب فواز ... فحملق بها ايليا متبرماً ، مستغرباً تطفل سيدة قبيحة ليس فيها من معالم الانوثة اي شيء فتأفف وسكت ...

ومـا ان بدأت تحدثهما وتطلق اراءها في شتى شؤون الانسان و قضايا مجتمعه ، حتى انتزعت انتباه المتبرم واحترامه فراح يحدثها جاداً في استبقائها للاصغاء اليها .

وعن حياتها مع زوجها، اديب نظمي ، فيقول الاستاذ محمد يوسف مقلد :

« كان قدومها من الاسكندرية الى بيروت بالباخرة ، ومن بيروت الى الشام بالسكة الحديدية ثم الى قرية تسمى (الشيخ مسكين) وهناك ركبت بغلة مطهمة مكسوة اجمل كسوة (كانت البغال مركوب الاكابر) الى حيث يقيم اديب نظمي في قرية (الشيخ سعد) من لواء حوران .

« ولم تمكث في حوران سوى قرابة سنة ، وانتقل بها زوجها الى الشام لضيق صدرها بالحياة هناك .

«وفي الشام استقبلها ضرائرها الثلاث استقبالاً عاطفياً طيباً بادىء ذي بدء ! فقد شعرن انها تمتاز عنهن علماً وادباً وخلقاً (وفرشة العرس عالية) كما يقولون على كل حال .. ولكنها ما لبثت ان اخذت تتبرم من حياتها تبرماً ملحوظاً ... »

ويقول الاستاذ مقلد في مكان آخر على لسان محدثه عمر الطيبي الذي التقاه في دمشق وقد عرف الكاتبة معرفة شخصية في بيت معلمه اديب نظمي :

« ولما وصلت زينب فواز إلى حوران – قادمة من مصر – كان هناك اثنان من العلماء والشعراء وهما الشيخ احمد الحماش نائب اللواء، والشيخ محمد الطيبي مفتي اللواء . وكانت تعقد مجالس ادبية اسبوعية في دار اديب نظمي، يحضرها حسن بن عبد المجيد الدوماني ، وابو السعود مراد ، وعبد القادر بدران ، وسليم عنحوري ورشيد الحشيمي ، وسيدالسلجطي وصالح طه ، ومحمود حمدي يوزباشي العساكر الشاهانية وحسين حسني ، وعمر نحولي من صيدا ، وصالح وهبي البغدادي ، واسعد الحمصي ومحمد عبد المجيد الدوماني (نسبة الى دوما) الخ ... ! كل هؤلاء كانوا يحضرون مجلس زينب فواز ويتطارحون الشعر والادب ، نظماً وتشطيراً ... وكان اديب نظمي – زوجها رسولاً بينها وبين القوم ، إذ تجلس هي وراء ستار قريب او غرفة مجاورة ، ويحمل منها وإليها ما قالت وقالوه . »

هكذا كانت تحول التقاليد دون انطلاق الكاتبة انطلاقاً كلياً في ميادين الحياة ومع ذلك فرضت شخصيتها ، ولكنها ويا للأسف لم تستطع،في هذه الظروف القاسية ان تكون رائدة من رائدات الفكر الغني بالعلم والاختبار الحياتي في الميدان الفكري الشامل سواء في احضان بلادها ام على المسرح العالمي .

ويتابع محدث الاستاذ مقلد في مكان اخر :

« عرفها استاذي ، وكنت اسميه (والدي) لانه لم يرزق اولاداً ذكوراً من زوجاته السابقات فتبناني . اقول ان اديب نظمي عرف زينب عن طريق المراسلة بين دمشق ومصر (والاذن تعشق قبل العين احياناً) ثم أرسل كل منهما صورته للآخر ... ويظهر ان الصورتين كانتا – هو وهي – من زمن الشباب . فلما تلاقيا ، وجدا ان الواقع

كان يختلف عما كان مظنوناً اختلافاً ظاهراً .. ! ولكن كان كل شيء قد انتهى ، لانه كان قد عقد له عليها وهي في الاسكندرية عند استاذها حسن حسني الطويراني ، فحضرت الى الشام وهي على حسابه شرعاً » .

وفي مكان اخر :

« لم تدم علاقتها باديب نظمي سوى ثلاث سنوات ، عادت بعدها مطلقة الى مصر ، وكان يصحبها خادم جاء معها ... وقيل انها ذهبت من هنا حبلى ، وهناك وضعت غلاماً سمته غريب وأقامت دعوى على اديب بطلب النفقة ، ثم جاءت الأخبار بعدئذ ان الولد توفي ، والله اعلم » .

حزن أديب نظمي كثيراً على فراقها ، وقد سأله احدهم اذا اتفق له يوماً ان تشاجر مع زينب وضربها فأجاب :

رأيت أناساً يضربون نساءهم فشلت يميني يوم أضرب زينبا
فزينب شمس والنساء كواكب اذا طلعت لم تبق منهن كوكبا

اما عن حياتها في مصر فليس لدينا الشيء الواضح عنها ولاسيما لما رحلت اليها اول مرة يوم كانت في ريعان الشباب ، بعد ان هجرت تبنين مطلقة من زوجها أحد افراد حاشية اسرة الأسعد ، كما ورد على قلم الاستاذ عارف الزين ، او مرافقة زوجها احد أفراد حاشية اسرة يكن ، حسب رواية جرجي باز .

الا اننا نعلم بكل تأكيد انها ذهبت الى الاسكندرية حيث استرعت انتباه حسن حسني الطويراني ، صاحب جريدة « النيل » الذي عني بتعليمها فتتلمذت عليه مدة طويلة .

ويقال انها بعد ان طلقت من زوجها الاول ، تعرفت الى احد

ضباط الجيش الكبار برتبة اميرلاي وتزوجت منه وليس في آثارها ، او في ما كتب عنها شيء عن ظروف هذا الزواج او ظروف انتهـــاء علاقتها بهذا الزوج . اذ لم تلبث ان تزوجت من اديب نظمي وسافرت الى سوريا حيث لم تمكث اكثر من ثلاث سنوات عادت بعدهـا الى مصر .

يقول الاستاذ محمد يوسف مقلد ما يلي :

« أما كيف هاجرت الى مصر ، وما هي الاسباب التي حملتها الى هناك ، فليس لدينا آثار مدونة عنها بالضبط فنوردها . ولكننـا نعلم من قرائن الاحوال في سيرة حياتها بتقدير راجح أن هجرتها الى مصر توفرت لها من سببين – ان لم يكن اكثر – اولهما طموحها الشديد الى الاستزادة من العلم والمعرفة وقد كانت مصر في تلك الحقبة موئلاً لطلبة العلم والمعرفة من كافة انحاء العالم الاسلامي ، كما انها كانت في ذلـك الوقت بالذات ، مهجـــراً مقصوداً من اللبنانيين والسوريين . والسبب الثاني هو وجود « اهل » لزينب في مصر بناء على ما سيتضح من بعض مقالات « الرسائل الزينبية » .

لقد أشارت زينب فواز قبلا الى شقيق لها في احدى رسائلهـا الى القسم النسائي في معرض شيكاغو في صدد تحديد عنوانها الذي ارادت ان يكون بواسطة شقيقها المحامي « محمد افندي علي فواز » في مصر .

وأما نشاطهـا الأدبي هناك فكان في مقالات كانت تنشر في بعض الصحف ، كجريدة « النيل » لصاحبهـــا حسن حسني الطويراني ، و « لسان الحال » ، و « المؤيد » و « الاتحاد المصري » و « مجلة انيس الجليس » وسواها .

وكانت تظهر في هذه الصحف مقالات لعائشة التيمورية وباحثـة

البادية ووردة اليازجي .

الا ان زينب فواز « كانت ألمعهن جميعاً وأشدهن تألقاً » .

ويضيف الاستاذ محمد يوسف مقلد قائلاً :

« اننا نلاحظ بكثير من الفخر ، ان اديبة كزينب وظروفها وزمانها ، اضطلعت الى حد كبير بحمل « رسالة » فذة تعتبر جدسابقة لأوانها ، وهي رسالة « بعث المرأة » العربية من جمودها ورجعية محيطها . ان امرأة اضطلعت ملهمة اليها لا من استاذ ولا من مدرسة ، بحمل هذه الرسالة الناهضة وفي حين كذلك الحين ، لا أرى مبالغة في ان اقول : انها معجزة ... وان محاولتها كانت شبه « اسطورة » تستحق كل تمجيد !»

والمعروف عنها ايضاً انها كتبت مقالات تصور فيها حياة المجتمع المصري في ذلك الحين وطريقة عيش الاسر الميسورة المتوسطة فيها حيث تعتبر مقالاتها صورة حية عن تقاليد هذه الاسر وعاداتها وخاصة في ما يتعلق بحياة المرأة والفتاة .

إلا ان زينب فواز لم تترك لنا شيئاً عن حياتها هي يمكن اعتماده لتعيين بعض مراحل هذه الحياة وتحديد فصولها وهو شعور بالاسف لا ينفك يمر على قلم الاستاذ محمد يوسف مقلد واوافقه عليه كل الموافقة .

فهذه الدرّة الفريدة في دنيا المرأة في العصر الماضي ، التي خلّدت الكثير من النساء في كتابها « الدر المنثور » لم تترك لنا اي شيء عن سيرة حياتها وهي تفوق قيمة وشأناً الكثيرات ممن كتبت سيرهن في كتابها ذاك وخلدتهن .

انها لمحات عن حياة هذه الكاتبة الفذة احيل من يريد التبسط في نواحيها بصورة أعم وأوسع الى السلسلة التي يقدمها الاستاذ عارف

الزين على صفحات مجلته « العرفان » بقلم الاستاذ محمد يوسف مقلد .
وقد توفيت سنة ١٩١٤ قبل بدء الحرب الكونية الاولى ببضعة اشهر .
اما ما يستنتج من الاطلاع على حياة هذه الشخصية القوية وهذه المفكرة العميقة والكاتبة البارعة ومن التعمق في آثارها ، ان ما يستنتج من كل ذلك هو ان هذه المرأة كانت مفخرة لجنسها وانها من ابرز الوجوه النسائية ان لم تكن ابرزها في هذا الكتاب الذي يتناول سيرة اديبات لبنانيات ويحلل آثارهن .





هنا كسباني كوراني

هنا كسباني كوراني

١٨٧٠ - ١٨٩٨

هي واحدة من ذلك الرعيل الاول الذي انطلق من بين الصفوف النسائية ، يتحسس شخصية المرأة الانسانية ويعي حقيقة تلك الخرافة التي شاءت ان تكون للمرأة حدود في مجالات العقل وميادين الفكر ، فشاءت بالتالي ان يكون لها عالم خـاص هو عالم البيت وحسب ، لا شأن له بما يدور خارجه من امور او شؤون كأن للرجل وحده ان يعالجها فيقرر النواميس والقوانين التي تضبطها .

وقد ترك هذا الوضع اثره الظاهر في نظرة بعض اولئك المنطلقات المتحررات الى الامور والاوضاع الراهنـة ، بحيث وقعن في كثـير من المتناقضات بين سلوكهن وبين ما اعلنه من اراء لا يلبسن ان يزخرفنها بالاستدراكات ، والتحفظات ، كشأن هنا كوراني كما سيتضح في مجال هذه العجالة .

واذا كان عليّ ان اطلع القراء في سلسلة هذه الدراسات على شيء من نتاج اديباتنا هؤلاء ، فاني لاسفة لعجزي عن ذلك في حـديثي عن هنا كسباني كوراني ، اذ اني طفت جميـع المكتبات علـّني اعثر على شيء من اثار هذه الكاتبة فما وفقت . وقد اتاحت لي هذه المناسبة ان اَطّلع على امر آلمني وهو ذلك الشيء من الفوضى الذي يعتري جـل المكتبات في هذا البلد ، اذ مـــا اطللت على واحدة منهـا اسأل

صاحبهاعما اذا كان عنده شيء من اثار الكاتبة هنا كوراني الا واجبت:
لك انتطوفي في مستودعنا في الطابق الاسفل وتفتشي بين الكتب...
- ولكن الا تنسقون انتم هذه الكتب حسب المواضيع والمواد ؟
وكثيراً ما كان الجواب هزة كتف ...

وكان ان اضعت الوقت هدراً دون ان اعثر على واحدة من قصص الكاتبة او على كتاب من مواضيعها فذهبت الى كفرشيما بيت احدى شقيقاتها علي اعثر هناك على اثر لها : كتاب من كتبها ، مخطوطة ، مقال في صحيفة فلم اكن اكثر حظاً مني في المكتبات .

ولدى استغرابي الامر قصت علي شقيقتها الحكاية التالية :

«لما توفيت هنا، بعد عودتها من اميركا بعام، عام امضته بين التياع الوالدين المرتجفين ابداً على حياة ابنتهما ولا شيء في الوجود كان جديراً بان يشغلهما عن العناية بصبيتهما ، وبين حرصها هي على الدراية واتباع حياة الهدوء والوقاية ، جادة دوماً الى اشاحة وجهها عن شبح الموت الذي كان يترأى لها والذي كانت تحسه مع الوالدين المرتجفين حائماً حولها ، لما توفيت بعد ذلك العام المضني للجميع ، اقبل يوماً على البيت جرجي نقولا باز وطلب الى والدي بان يسمح له بالاطلاع على اوراق هنا وكتبها لانه يود ان يجمع اثارها ويطبعها ...

« خيل لوالديّ يومذاك واثناء تلك المقابلة ان في الامر منفعة مادية يود نصير المرأة ان يجعلها في متناولها، فعز على الوالدين المفجوعين ان يكون موت صبيتهما سبباً في منفعة تطالها ، فوثب والدي ووالدتي بعد ذهاب الزائر واحرقا كل ما تركت هنا من مخطوطات واوراق رافضين ان ينتفعا من موت ابنتهما . »

في هذه الحكاية صورة صادقة لعفوية ساذجة في صدق المحبة .

وهكذا لم يكن حظي أوفر في دار شقيقة هنا منه في المكتبات ودور الكتب ، ولكني فزت برسم لها جميل هو أمام القارىء .

على اني عثرت في كتاب « بلاغة النساء في القرن العشرين » لمؤلفته فتحية محمد على نبذة من حياتها وضعهـــا السيد جرجي باز تشير الى مؤلفاتها دون ان تعطينا مادة تمكننا من درس ادبها لانها خلو من نص للكاتبة ذاتها ، كما عثرت في الرسائل الزينبية ، للكاتبـة زينب فواز وهي من ابرز وجوه ذلك الرعيل الذي أشرت اليه في بدء كلمتي ، على فقرات من مقالات هنا منها مقال بعنوان « المرأة والسياسة » كان موضوع معارضة شديدة من الكاتبة زينب فواز ، كونت عندي الرأي الذي اعلنته في مطلع هذا الدرس من ان التناقض كان واضحاً في مـا كانت تكتبه النساء المتحررات في المرحلة التي تحسسن فيها وجودهن كبشر وفي ما كنّ يقمن به من بوادر .

اما هذه الفقرات فهذه بعض منها :

« ان المرأة لجهلهـــا شرف مقامها تظن ان مساواتها بالرجل لا تتم الا بعملها لما يعمله ، وان المرأة لا تقـــدر على عمل خارجي مع اداء واجبات مـــا يلزم لخدمـة الزوج والاولاد » .

أبادر هنا فأقول : ليس في هذا القول الكثير من الخطأ اذ انه كان صحيحاً أن لا تستطيـع المرأة التوفيق بين واجباتها كربة اسرة ومهامها كمواطنة في شتى ميادين الحياة ، ولاسيما يوم قالت هنا كسباني كوراني هذا القول ، اذ ان التنظيم الاجتماعي يومذاك ووسائل الخدمة البيتية لم تكن لتترك متسعاً من الوقت لربة الاسرة وام صغار تجد فيه مجـالاً للقيام بهذه المهام خير قيام .

وهكذا أدركت الامـــم التي شاءت ان تكون مساواة المرأة

بالرجل حقيقة واقعية انه يترتب عليها اول ما يترتب ايجاد الوسائل التي تجعل باستطاعة المرأة تحقيق هذه المساواة ، فانشأت دور الحضانة ورياض الاطفال ، وبادرت الى تحسين وسائل الخدمة البيتية التي اختصرت الكثير من الاعمال .

واذن فقول هنا كوراني الأنف لم يكن خطأ الى الحد الذي اثار السيدة زينب فواز فقالت :

« ما من امة فشا فيها داء الكسل وسرت اليها علة الخمول الا دمرتها وهدمت اركان عزها ودكت حصون تمدنها » الى ان تقول : « فما المانع اذاً من اشتراك المرأة في اعمال الرجال وتعاطيها الأشغال في الدوائر السياسية وغيرها متى كانت جديرة لأن تؤدي ما انتدبت اليه ، والا فما فائدة تعلم المرأة الغربية جميع العلوم الخ ... »

فمن التوقف عند هذين القولين يتضح انه كان في قول الاولى هنا كوراني تناقضاً بين ما مارسته من اعمال وما اعلنته من آراء لا شك في ذلك ، ولكن المهم في الامر هو انه قد فات الكاتبتين معاً ان في الشروط المادية التي كانت تعيش فيها المرأة السبب لعدم تمكنها من ممارسة جميع ما يمارسه الرجل من اعمال وما تستطيع حقاً ان تمارسه هي ، فردّت هنا كوراني هذا السبب الى « جهل المرأة مقامها اذ تظن ان مساواتها بالرجل لا تتم الا بعملها لما يعمله ... » وردّت زينب فواز السبب ذاته الى « الكسل والخمول » . بدلاً من ان ترده الى الشروط الاجتماعية .

اما الرأيان اللذان يستوقفان حقاً عند الكاتبتين بحيث نستطيع ان نخرج بفكرة واضحة عن ادبها ولونه فهما التاليان :

تقول هنا كوراني « فهذه الخطة (الخطةالمنزلية) — طبيعية للنساء

ولا يجوز لهن ان يتخطينها لان هذه سنة قد سنها الله لهن ولو تجاوزنها لتغير نظام الكون وتبدلت نواميس الطبيعة . ولو حاول الانسان ابدالها لخاب املاً وفشل عملاً ، ولا يمكن ابدالها وتغيير القصد فيها الا بالهلاك العاجل او الآجل » .

ففي هذا القول تجاهل لسنة التطور والتحول التي هي في اساس كل شيء ، وفي اساس التحول الاجتماعي الخاضع لأرادة الانسان بصورة خاصة ، انها حقيقة لا بأس من تكرار قولها كلما عرضت المناسبة . فلم نر من ثم ان « نظام الكون قد تغير وتبدلت نواميسه الطبيعية » على حد قول هنا كسباني كوراني ، يوم قام النظام الجمهوري مقام النظام الملكي ، ويوم تحولت المفاهيم الاقتصادية في سياسة التبادلات الدولية وعمليات الانتاج مثلاً ...

اما جواب زينب فواز على هذا القول ففيه تحسس لسنة التطور وان كان ينقصه الوعي العلمي الواضح ، فنقرأها تقول :

« تأمل ايها العاقل كيف ان الانسان صغير بالجرم كبير في العالم ، ضعيف في نفس الامر ، قوي بالفعل ، يقدم على الصعاب يذللها بقوة ذكائه ، ويهجم على الامور بهمة فتنقاد له طوع بنانه ، خضعت له جميع الموجودات بحسن تدبيره وقوة حزمه » .

انه التحسس العميق لسنة التطور ، والايمان الصميمي بهذه السنة وان أعوزهما الوضوح العلمي .

وأكاد اقول بعد هذا : اني لو استطعت ان اعثر على بعض من مؤلفات هنا كوراني وبادرت الى درسها لاثبات نزعتها تلك بالكفر بسنة التطور ، لاستطعت ان اعثر في سياق الدرس على الكثير من النصوص التي تثبت هذا الكفر .

ولكن نزعة هنا كوراني تلك لم تمنعها قط من القيام بنشاط اجتماعي وادبي ملحوظ بحيث انها لم تكن يوماً المرأة القابعة في بيتها ، المنصرفة الى اعمالها المنزلية رغم الآراء التي قرأناها لها .

... قد يقول قائل ان ذلك عائد الى كونها لم تنجب الأولاد ... قد يكون ذلك صحيحاً ، ولكن حياة الكاتبة تظهر بوضوح انها لم تطبق هي ما اعلنته من اراء ... وقد اشتركت بمؤتمرات نسائية دولية ، وألفت كتباً وكتبت مقالات عدة واتقنت فن الخياطة .

اما سيرتها فتلخص بما يلي :

ولدت في كفرشيما سنة ١٨٧٠ ، وتعلمت في مدرسة المرسلين الاميركان في كفرشيما اولاً ثم في مدرسة شملان الانكليزية ، واخيراً في مدرسة البنات الاميركية الكبرى في بيروت حيث درست قواعد العربية والانكليزية .

وعلمت في مدرسة البنات الاميركية في طرابلس .

وبدأت تعرف باكراً في الاوساط الأدبية والفكرية ، إلا ان نشاطها الادبي لم يبرز الا بعد زواجها من امين كوراني حين بدأت تراسل الصحف والمجلات ، وتؤلف وتترجم وتخطب .

ثم انتدبت عام ١٨٩٢ لتمثيل بنات سوريا في مؤتمر النساء العالمي الذي عقد في شيكاغو ، حيث كان لخطبها اثر مرموق ، مع العلم انها اقرت مع المؤتمرات تحفظات تتعلق بمساواة المرأة بالرجل ، فانبرت لها زينب فواز تؤنبها على هذا التخاذل كما تنتقد المؤتمرات والقائمات على تنظيمه ، فقامت مناظرة طريفة وحادة بين الكاتبتين في جريدة النيل ، نجد قسماً كبيراً منها في كتاب زينب فواز : « الرسائل الزينبية » .

وهناك ذاع صيتها بعد ان جـــابت ولايات عدة من اميركا اثر انفضــاض المؤتمر ، وخطبــت وحــاضرت في نيــويورك وبروكلن وبوستن .

واقامت في اميركا نحواً من ثلاث سنوات كانت خطبها ومحاضراتها خلالهـــا مورد رزقها الوحيــد ، اذ لم تسعد في حياتها الزوجية ، فافترقت باكراً عن رفيقها واضطرت ان تتكل على نفسها في تأمين عيشها .

ومما يذكر عنهــا انها كانت تقبل على الخطــابة بزيها الشرقي على قامتها المشيقة وجمالها المرموق ، مما كان يستهوي الاميركان .

اما مؤلفاتها فهي : « رسالة في الاخلاق والعــادات » رفعت منها نسخة الى السلطان الذي منحها وسام الشفقة ، وكان يمنح هذا الوسام يوم ذاك لذوات المكانات من النساء .

واما رواياتها فهي : « فارس وحمـــاره » ، « زقاق المقلاة » ، « الحطاب وكلبه بارود » .

ولكن يبدو ان نشاطها هذا المتواصل وكثرة الشؤون التي آلت على نفسها الاهتمام بها قد اثرا في صحتها تأثيراً سيئاً، فمرضت بداء السل اذ كانت في اميركا .

وما لبثت ان اسرعت ، بنصح من الاطباء بالعودة الى لبنان والاستشفاء والراحة وقد عثرت في مجموعة المنتقى للاب بطرس برتو رئيس دير القطارة على مقطع من خطاب القته ، بعد عودتها من اميركا تحلل فيه مشاهداتها عن المرأة في تلك البلاد عنوانه « التمدن الحديث وتأثيره في الشرق » قالت :

« تأثير المرأة في التمدن الحديث مشابه لمآثر الرجال ، فلها الآن

«في البلاد الغربية ، من آثار التـآليف والاكتشاف والاستنباط مـا كان يظن ان بينه وبين عقل المرأة مثل ما بين ملتقى الخافقين . وقـد مدت يدها للعمل في جميـع فروعه ، ولم تترك باباً الا طرقته، واجبرت الرجل على الاعتراف بفضلها واقتدارها، فأعطيت من الحقوق الشرعية ما لم تحلم به امرأة من قبل ...

« وقد دخلت منزلها ، فوجدته بدرجة فائقة من الترتيب والنظافة والظرف ، اجتمعت فيه موارد الراحة ومناهل الملذات. وقد رأيت زوجها سعيداً ، مفـــاخراً بجمالها وآدابها وحكمتها . واولادها صحاح الابدان ، مهذبي الاخلاق ومثقفي العقول .

« فذهلت مما ابصرت ، وقلت في نفسي : واحيرتاه ! كيف تسنى لها - والحياه قصيرة - ان ترقى الى هـذه المعالي ، فوجدت ، بعد الفحص والمراقبة ، ان ذلك هو نتيجة السعي واستغنام الفرص وترتيب الاوقات ،فهي تعمل من الصبح الى منتصف الليل، وفقاً لنظام لا تحيد عنه يمكنها من القيام بشؤون شتى »

كثيرة هي البديهيات الواردة كاسباب نجاح المرأة .

ولكني استأنف على كل حال نقل هذا المقطع في خطابها « التمدن الحديث وتأثيره في الشرق » .

تقول متوجهة من المستمعات اليها :

« فهذا ما ارغب ان اوقفكن عليه ، ايتها الاديبات لتعلمن ان للمرأة العارفة ، العاملة ، تأثيراً لا يحد في ترقيـــة البشرية مادياً وايضاً لكي اؤكد لكن انه يستحيل عليها مجاراة الرجل في العـــلم والاداب ان لم تعول على نفسها .

« المرأة ، بسبب لطافة طبعها ورقة عواطفها ، تحررت من نير

ظلمه السابق ، واكدت له ان جهادها واحتمالها للمصاعب لم يكن حباً للسيادة ، بل طمعاً في تحصيل العدل والمساواة به فعندئـذ ارتفعت منزلتها في اكرام الرجل ، اي ارتفاع ، فزاد شغفاً بجمالها المعنوي ، ومن ثم سعى الاثنان معاً ، يداً بيد ، في العمل المرقّي لبني الانسان والمقرب لسعادتهم، فنشأ عن ذلك التمدن الحديث وما يتبعه من الرغد والمجد والارتقاء .

« فعلمنا بعظم ما فعلته وتفعله المرأة في الغرب ، يجب ان يثير فينا الغيرة للاقدام على مثله في الشرق . فالوطن والرجال ايضـــاً في حاجة شديدة الى معونتنا ، نحن النساء ، فلنقدّم لهما من فرائض آدابنا وعلومنا وتهذيبنـا ما يقدّرنا عليـه الله فلتكن المرأة الشرقية عماداً في بنـاء مدنيتنا على اســاس العلم والفضيلة ولها بهذا فخر لا يزول . »

وما لبثت ان عـاودها الداء فتوفيت سنة ١٨٩٨ وهي بعـد في التاسعة والعشرين من عمرها .

كانت تنظم الشعر احياناً وقد عثرنا لها على بعض ابيات صدرت بها وختمت رسالتها في الاخلاق والعادات قالت مصدرة .

خطت يدي ما جال في خاطري   وغايتي خدمة هذا الوطن
تعـاون الافراد يفضي الى   تجمع القوة وهـو الحسن
انفقت مما لي فان تنفقوا   مما لكم نلنا المنى والمنن

وقالت خاتمة :

خواطر افكاري بثثـت اليكم
بني وطـني يا عمدتي وعمـادي

خواطر لاحت لي فاحببت نشرها
وها أنذا أبدي لكم ما بدا ليا
ولولا يقيني انكم اكرم الورى
لاشفقت ان ارمي بنفسي المراميا
على انني جرأت نفسي بحلمكم
واملت فيكم ان انال الامانيا

الاميرة الكسندرة ده فرينو فيزينوسكا

١٨٧٢ - ١٩٢٧

هي من الاطياف التي تبرز في ذاكرة الزمن ، فلا تبقى في الصف مع الركب السائر في سبل الحياة يدفعه الى المسير الرتيب نهج اعدته عوامل راكدة من المجتمع او الاسرة او طبيعة الجنس ...

هي ارادة من تلك الارادات الفاعلة التي تتطلع الى ما حولها من معقدات الحياة وما يأسرها من عرف غبي ، وما فرض عليها من اسلوب عيش ، فلا ترضخ صاغرة لتمشي الى حيث تذوب شخصيتها في مجموعة من الخلائق لا أثر لوجودها ولا ثمرة ، بل تنطلق في اجواء حوار عقلي لتختط على اضوائه الملتمعة طريقاً يتوافق مع ما يفضي اليه ذلك الحوار الخلاق، فيكون لها النهج الذي يوجد مجرى يدفع بالركب الى الامام ويحرك الركود العقيم .

اما ذلك الطيف الذي نتبين في ذاكرة الزمن ، وتلك الارادة التي نشهد فاعليتها على شاشة الحياة في استعراضنا لمن خلفوا وراءهم ، في مسيرهم على دروب هذه الحياة ، خطاً مضيئاً ، فهي اديبة لبنانية ، اكتسبت في عالم الأدب والفكر ، بين ممالك الشرق والغرب مكانة لم تسبقها اليها اية كاتبة ... ولو ان هذه الشخصية النسائية الفذة كانت من بلد غربي ، لألفت فيها الكتب ولذاع صيتها في كل بيت وكل مجتمع ولكان ذكرها على كل شفة ... وانه ليؤلمني ان ارى من

كانت اقل منها شأناً من الغريبات مشهورات حتى عندنا ومعروفة نشاطاتهن ودقائق حياتهن ، كمدام ده ستال مثلاً ، ومدام ده سيفينيه ، ونينون ده لانكو الخ ... بينما لا اظن ان من بين القـــراء كثيرين هم الذين يعرفون شيئاً عن الأديبة الكبيرة والشخصية النسائية الفذة التي اتحدث عنها ، انها الاميرة الكسندرة ده افرينو فزينوسكا ابنة الشاعر قسطنطين الخوري .

ولدت في بـــيروت سنة ١٨٧٢ حيث تلقت علومها الابتدائية في مدرسة راهبات اللعازارية ومدرسة الاميركان.

ولما نزحت اسرتها الى الاسكندرية اتقنت هناك ، في مدرسـة الراهبات اللغتين الفرنسية والايطالية .. الا ان والدها الذي كان له شأن في عالم الشعر ، لم يشأ ان تهمل لغة بلادها ، فاستقدم لهـــا استاذاً عني بتعليمها آداب العربية . ولما أنس فيها موهبة الفصاحـة ، عهد الى تقوية ملكة النظم فيها ، فكانت باكورة نظمها وهي بعد في الثالثة عشرة من عمرها .

فمــا لبثت هــذه الصبية الموهوبة ان استرعت انتبــاه الاوساط الفكرية والارستقراطية . فتقدم طالباً يدها نبيل من الاسر الغربية هو ملتيادي ده افرينو الذي اصبح لها الرفيق المنفتح على اجواء الحياة، افسح لها مجال الانطلاق في دنيا الأدب دون ما اي تحديـد وكانت يومذاك في السادسة عشرة من عمرها .

فأنشأت مجلة « انيس الجليس » التي جعلت منها منبراً للاقــلام الحرة ، وراحت تدافع على صفحاتها عن حقوق بنات جنسها . وما عتم ان ذاع صيتها ولمع اسمها في الشرق والغرب ، وراحت مجلات العالم تتحدث عنها ، وتكتب صحف الاستانة باكبار وتقدير عن هـــذه

الرائدة حتى اصبحت مجلات العالم وصحفه تتسابق على نشر رسومها منها مجلة كران موندو الايطالية ، ومجلة مدام الانكليزية ، والمنتيسور ده كونزيك ، ومجلة فيمينا ، ومجلة آرتي ، ومجلة ريفيستا ، وجريدة اتينه الباريسية وسواها من المجلات والصحف العالمية .

وما كانت تمثل اي قطر من الاقطار العربية في اي مؤتمر او اية مناسبة دولية حتى كانت تنتزع اعجاب كبار رجالات العالم وشخصياتهم . فلما سافرت الى باريس مندوبة عن السيدات المصريات للاشتراك في معرض جمعية السلام رفعت قصيدة بالعربية لرئيس الجمهورية الفرنسبة الذي دعاها الى حفلة راقصة في الاليزه اقيمت على شرفها .

وكتبت السيدة فتحية محمد ان الاميرة الكسندره القت ايضاً خطاباً في قاعة المستعمرات تحت رعاية وزير المعارف بحضور كبار شخصيات البلاد السياسية وكبار ضيوف فرنسا منهم باي تونس ووزراء مراكش ، فاظهرت في خطابها ذاك ان للمرأة الشرقية فضائلاً وميزات نالت استحسان الحضور ، وقد وفقت في خطبتها تلك توفيقاً جعل سكرتير وزارة المستعمرات يقف خطيباً ويقول : « ان الاميرة الكسندرة هي التي عرفته منزلة المرأة الشرقية وانها نموذجاً لها » .

ونشرت الخطبتان خطبة الاميرة الكسندره وخطبة السكرتير ، في اكثر صحف باريس بتعليقات كلها اطراء على السيدة الشرقية التي انتزعت التصفيق والاعجاب العفويين .

ولما اشتركت كذلك بعيد السلطان عبد الحميدالفضي في الاستانة ، انعم عليها السلطان بوسام الشفقة الثاني . وبعد عودتها الى مصر انعم عليها بوسام الشفقة الاول (له غران كوردون) وهو وسام لا يمنح الا

لنساء الملوك والوزراء .

ومن الاوسمة العديدة التي نالتها والتي يندر ان نالها رجل قبلها ، وسام شاه ايران مظفر خان حمله اليها سفير ايران في الاستانة معلناً لها ان شاه ايران انشأ هذا الوسام لها شخصياً .. ومنها الوسام الذهبي لجمعية المعاصرين في روما ، ووسام الصليب من الدرجة الاولى من جمعية تأليف التربية ، ووسام صليب اميريكا الشرقية الاكبر ، ووسام عضوية مار بطرس ووساماً من درجة فارس من جمعية الانسانية والسلام التي كان يرأسها الدوق سرج اورلوف

واما سر هذه المكانة الفريدة التي نالتها في الاوساط العالمية فقد يعود الى كونها انشأت ، بعد عودتها من باريس ، مجلة « اللوتوس » باللغة الفرنسية لتتطلع الاوساط الفكرية الاجنبية على حقيقة احوال المرأة الشرقية فلا تظل واهمة انها ترسف في قيود الجهل الى الحـــد الذي يظنه الغربيون ، والى كونها استكتبت في مجلتها هذه اعظم رجال الفكر والعلم في العالم الغربي .

ولما تعرفت الى الأميرة فيزينوسكا ، رئيسة جمعية السلام النسائية في اوروبا ، اعجبت هذه الاميرة بها كل الاعجاب وقدرت مواهبها وقوة شخصيتها وارادتها الفاعلة الى حد انها تبنت زوجها لتنعم عليها بلقب الأمارة اذ لم يكن لها ولزوجها اية ذرية ، اي لاسرة فيزينوسكا الاصلية .

ومن الأوسمة التي نالت والذي له شأن خاص لاتصاله بالنشـــاط الادبي، المدالية الفضية من لجنة عيدالجلوس الخدوي وهي اللجنة التي كانت تمنح الجوائز للشعراء .

اما اطلاعها بالأمور السياسية فكان من العوامل الهامة التي عملت

على اذاعة شهرتها في الاوساط الفكرية بين قراء العربية وفي العالم الغربي .

وقد كان لجريدة « المؤيد » التي انشأتها سياسية كبير الاثر في الاوساط المختلفة والدوائر الرسمية في العالم ، نظراً لما كانت تحمله افتتاحياتها الجريئة من آراء صائبة ، وعمق تفكير ، وبعيد اتطلاع على الأحداث العالمية واسبابها وذيولها .

ومما تقوله فيها السيدة فتحية محمد في كتابها « بلاغة النساء في القرن العشرين » الذي اخذت عنه الشيء الكثير مما ورد في هذا الحديث ما يلي :

« وكان لسلطان زنجبار السابق رحمه الله عناية خاصة بها واعجاب كبير لسمو ادبها ، فواصل رسائله اليها واهدى اليها رسمه الكريم مكبراً وموقعاً عليه بخط يده ... وأنعم عليها البابا ليون الثالث عشر بوسام محامي القديس بطرس ، وبطريرك اوروشليم بصليب قصر المقدس الذهبي ، وجمهورية سان مارينو بمدالية الاستحقاق الذهبية ...

« واما اخلاقها فالدليل الصادق على ان الغالب في جمال الخلق ان يكون مقروناً بجمال الخلق والحجة البالغة على ان الروح الطاهرة الجميلة يسكن الجسم الطاهر الجميل – يرى منها الجليس احسن ما ترى العينان ، ويسمع من حديثها اطيب ما تسمع الأذنان . يقصدها ذوو الحاجات متوسلين بها الى العظماء وذوي الاقدار والمكانات فتمضي في حاجتهم على ما في ذلك من العناء والتعب – وعلى ذكر العظماء وذوي الأقدار نذكر انه يندر ان يكون لغيرها ما لها من الاتصال العظيم بكبار القوم والجانب المرعي ، وقد أشار الى ذلك الدكتور هرتمن في كتاب له وضعه باللغة الانكليزية وفيه الشيء الكثير من خصائص

ومزايا صاحبة الترجمة فليراجعه من اراد وقد اشار اليها ايضاً في عدة كتب اصدرها عن ادباء الشرق . ومن اخص مزاياها تلك الشجاعة الادبية التي عرفت بها ، فلا ترتد عن مطلب تنتحيه مهما وعر سبيله وخشن مركبه ، وهي فوق ذلك جريئة ، مقدامة فيما تعني به من احرز الشؤون » .

الا اننا لم نعثر على عدد واحد من مجلة « انيس الجليس »او جريدة « المؤيد » او مجلة « اللوتوس » لنورد شيئاً من ادبها فنقرأ لها ونحلل كتابتها . ولكنني عثرت في المشوق الجزء الاول على مقال لها عنوانه :

الكبرياء والجمال

قالت :

« مهلاً ؛ ايتها الحسناء المباهية بجمالها ، ورويداً ايتها الغنيّة المكاثرة بمالها ! ان تمام تلك المحاسن لا يكون بالكبرياء ، وان زهو ذلك المال لا يكون بالترفع على الاوساط والفقراء ، وان المنزل الذي لا يدخله الناس مكروه قبيح ، ولو كان من اجمل المنازل ، والمنهل العذب ، اذا كان لا يروي غلة البائس ، فماؤه كدر ، ولو كان اهنأ المناهل . ليست المحاسن ان نهزّ القوام تيها ، ولا الكمال ان نترفع على الناس نفساً اذا ارتفعنا عنهم قدراً ، وانما المحاسن تزيد بهاء ، اذا قرنت بالتواضع والحنان ، والغنى يزيد حسناً ، اذا صاحبه التنازل والاحسان .

« شهد الله الكبرياء مكروهة في ما يحق للانسان ان يفتخر به من كدّ يمينه ، والصلف قبيح في من ينال المنزلة العالية باجتهاده وعرق جبينه ؛ فكيف لا يكون مكروهاً في من لا فضل لها بجمالها سوى ان الله قد خلقها حسناء ؟ وكيف لا يكون الترفع قبيحاً في من لا فضل له

بماله سوى ان المولى قضى ان يكون من ابناء الاغنياء ؟

« ان العالم لا ينال العلم الا بعد العناء ، وكلاهما يقدر ان يقول : « انني افتخر بما حصلت ، اذ انني ادركتـــه بكد اليمين ووفرة الاجتهاد » ومع ذلك فان العالم ، أذا تكبر بعلمه ، كان ذلك التكبر نقصاً في فضله ، والغنيّ ، اذا افتخر بماله ، عـد افتخاره حطّة في مقامه ووضاعة في نبله ، فما بال الحسناء التي لم يكلفها تحصيل الجمـال تعباً ، وانما هو نعمة الخالق ، انعم به عليها من الميلاد ، وهبة الطبيعة وهبتها اياها بلا عناء ولا اجتهاد ، ايّ عذر يكون لها ، اذا تكبرت على امثالها ؟ واي جواب تؤديه ، اذا ســألها عن كبريائها خالق حسنها ؟ بل ايّ فضل لها في الحسن ، لكي تتكبر على ابناء جنسها ، واي فضل للزهرة الناضرة في حسن لونها وطيب غرسها ؟

« ان الله الذي خلق المحاسن ، قد اوصى بتواضع النفس ولطف السجايا ، فكما اخذت منه الحسناء جمالها ، فلتأخذ منه ايضـاً تلك الوصية ، فما اجمل القبح ، اذا قارنه التواضع والاحسان ، ومـــا احسن الفم الوردي ، اذا زينته ابتسامة التواضع والايناس ، وما ابهى الوجه الجميل ، اذا كمّله حسن الالتفات والتنازل مع الناس ! ولله در الشاعر العصري الشيخ اليازجي حيث قال :

اذا كان الكريم عبوس وجه   فما احلى البشاشة في البخيل

اما الاميرة فيزينوسكا الاصلية فبعد ان تبنت زوج الكاتبة واعطته لقب الامارة لتستفيد منها زوجته عادت وكتبت الى صاحبة الترجمة واخبرتها ان قائدات جمعية السلام النسائيـــة في اوروبا يمنحنها كل ثقتهن وانهـــا هي ، اي الاميرة فيزينوسكا رئيسة الجمعية المذكورة ، تطلب اليها ان تكون نائبتها وممثلتها في الاقطار الشرقية .

فتولت هذا المنصب بكل نشاط ودعت نساء الاقطار العربية للانضمام الى هذه المؤسسة العالمية فلبين ، وكان لهذه البادرة اثرها العظيم لدى مركز الجمعية الرئيسي في باريس فاهدتها وسام الجمعية الذهبي .

اجل ان هذه السيدة العظيمة التي اطلعنا على بعض الشيء من حياتها الذاخرة بالعز والتي تداني ، كما رأيتم ، في عظمتها مشاهير التاريخ ، اجل ان هذه السيده اديبة لبنانية مغمورة ...

لقد نفذت شهرتها الى مشارق الارض ومغاربها ، حتى لتحدث عنها المؤلفون واهديت اليها الاوسمة الرفيعة ، واحلها الملوك والعظماء مكانة مرموقة عندهم ، وانا لعلي مثل اليقين من ان الكثيرين لا يعرفون شيئاً عنها ، وقد يكونون لم يسمعوا لها اسماً بعد ...

فكم هم الذين يعرفون الاميرة الكسندرة ده فرينو فيزينوسكا ؟..

ومن يعرف انها ابنة الشاعر المرحوم قسطنطين نعوم الخوري ؟ ..

وقد توفيت في لندن سنة ١٩٢٧ .

لبيبة مخايل صوايا

- ١٨٧٦

هي واحدة من ذلك الرعيل الذي شـــاء ان ينفذ الى رحاب الانطلاق وينفلت من بين جدران ضمنها حددت ملاعب عالم المرأة في الشرق كله ، فراحت ، كغيرها ممن اتخذن لهن مكاناً في صف هـــذا الرعيل ، تفرّج عن مكبوتات اثقلت نفسها واشاعت فيهـا استيحاشاً واستغرابا ، لا تعرف لهما اسماً ولا تُدرك لهما منبعاً ولا سببا ، راحت تفرّج عن ذلك باطلالة على دنيا مجتمع كان كله للرجل ، له فيـه المدى والســاح ، لتجعل لها في هذا المجتمـع بعضَ وجودٍ وبعضَ كينونة .

اما هذه الاطلالةُ فكانت فِكراً تنمقها وتبرّجها ثم تنثرهـا في اجواء هي غريبةٌ عنها ، عاجزةٌ عن ادراك مقومـــاتها وعناصر تكوين الوحـــدات فيها ، من الاسرة ، الى المواطن ، الى الوطن والمجتمع ، فلم يكن فيما نثرت وكتبت على الغـــالب اي اثر لمعطيات المحتوى الفكري الجديد بان يستوقف او ان يكون له اي تأثـير في معالجة القضايا على الاجمال ، حتى ولا في معالجة الشؤون النسائيـة من حيث الظلمُ والحيفُ اللذين كانا يقعـــان عليها يوم كانت ما تزال تنزوي بين جدرانِ البيت كآمة ، لا كأنسان مستكملٍ عناصر الشخصية .

كان ذلك على الاجمال يوم اطلت لبيبة مخايل صوايا على القراء بكتابات كلها سذاجة وكلها طفولة ، ولكنها لم تخل احياناً من الظرف ومن بعض الشاعرية .

ولدت لبيبة صوايا سنة ١٨٧٦ في طرابلس وتلقت دروسها في مدرسة الاميركان في المدينة ذاتها ونالت شهادة المعهد ذاته حيث علمت بضعة اعوام .

واحبت ان تلج ميدان الادب فالفت بالفعل رواية « حسناء سالونيك» درست فيها تاريخ الانقلاب العثماني باسلوب لا يخلو من المتعة على بساطته ، وقد نوهت مجلة المباحث الطرابلسية لصاحبها جرجي يني في سنتها الثانية ١٩١٠ الجزء الاول بصدور هذه الرواية التي تقع في مائتين وخمسين صفحة .

ونجد من اثارها خطابين في مجلة المباحث ايضاً ، اولهما بعنوان « الزنبقة » تلته في حفلة نظمتها جمعية عَضُدِ اليتامى ، قالت في احد مقاطعه :

« فاليكم ثلاثُ زهرات صغرى ذاتُ ثلاثة معانٍ كبرى ولا يشعُر بلذة فائدتها الا من عود نفسه على اجتناء الفوائد من مثل هذه الزهور الصغيرة ، لانها مخلوقاتٌ بديعة قد شاءت العناية فجعلتها صلة الهية بيننا وبين واجب الوجود عزّ وجل .

« فان انتبهنا لصوتها ودرسنا لغتها وفلسفتها وتأملناها حسب قول السيد له المجد تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو ، وصلنا الى اعلى درجات الارتقاء الخلقي التي يمكن ان يصل اليها الانسان في سلم الكمال الادبي .

نجد في هذا المقطع دون شك ايمانها العميق بالاله واحترامها

الصميمي لقدرته « عزّ وجلّ » فهي اذن مؤمنة .

وتقول بعد ذلك إنها اختارت من بين الزهرات الثلاث : الزنبقةِ والبنفسجةِ والوردة ، ولكل منها معانٍ تنتهي اخيراً الى تمجيد اسم المُبدع العظيم الى الابد ، اختارت الزنبقة التي ترى فيهـــا « القوة والحنان والعفاف » وتتابع :

« متمسكةً بالزنبقة وتاركة الزهرتين الاخريين لفرصة اخـرى . لقد قدمناك اذا ايتها الزنبقةُ الجميلةُ على الوردة والبنفسجة فهاتي مـا عندك من سمو المعاني التي تصح بان تكون قلائدَ من العُقيان لجيد الخرائدِ والحِسان .

«إنانرفعابصارنا وانت على قوامك المياس تتأودين فتُعلـّمينالناظرَ اليك كم تليق الاستقامة بعلو المقام »

ثم تستخلص من إمالة رأس الزنبقة وإطراقها الى الارض التواضعَ الذي يُشير الى البهاء الوقتي . إن هذا من التراب والى التراب يعود ، ومن بياضِها الناصع الطهارة ، الى ان تقول :

« خليقةٌ انت يا سيدة الازاهر بـان ُتزيني حدائقَ جميـع البشر وتنشري طيبـك المنعشَ في ُمحيط قصور الملوك وأكواخ الفقراء ، فتستمد العذارى زنابقُ الانسانية من طيبك فيزداد به محيطهُن طيباً ويساوين اكواخ الشقاء بقصور السعادة » .

في هذه السطور الكثير من الرمزية البديهة . ويختلط عندها فيما يلي مفهوم العلم بمفهوم القدوة او الاقتباس فتقول :

« إن خزائن العلم تحت مطاوي اكامك الجميلة ، فزحزحي عنهـــا متكرمةً ، وعلمينا آدابك وفنونك ونحن على ثقة الخ ... »

وهنا كان يجدر بخيالها ، لو انه اتيح له ان يختزن من مناهل المعرفة

بمفهومها العلمي ما في مطاوي اكمام الزنبقة من كوى تُطل على اسرار تكوين المخلوفات في سلم الكائنات من جماد ونبات وحيوان ، اذن لاتت لفتة خيالها اللطيفة هذه وقد ومضت فيهـا التماعة من المعرفـة جعلت لهذد الرمزية طعماً من دسم المعرفة ونُكهتها ، بدلا من ان يأتي وفيه الكثير من سذاجة الطفولة .

واننا في استمرارنا بقراءة هذا الخطاب نرى ان الكاتبة تقع في تكرار المعاني والمقارنات بصورة تبعث على الملل وتُفقد من ظُرف الفكرة على سذاجتها ، فهي تكرر ان لون الزنبقة الابيضَ النقيَ هو مثالُ الطهارة وان ارتفاعَ عنقِها هو دليلُ تطلعها الى القيم وان إمالة رأسِها هي دليل التواضع الخ ...

اما خِطابها عن البنفسجة في الجمعية ذاتها التي ألقت فيها خطابها عن الزنبقة والمنشور ايضاً في مجلة المباحث ، فتستهله بأبيات من الشعر لم تخرج فيها عن التشبيه الساذج بمكارم الانسان او المكارم التي يجب ان يتحلى بها هذا الانسان اقتداءً بالبنفسجة ، ولكنه لا يخلو من الرقة والشاعرية ايضاً ، فتقول على لسان البنفسجة .

دع يا ابنَ آدم اهلَ الخُبث والعِوج
وانشد عزيزاً فنبتُ العدل في اللجج
طعامه فِلذة الأكباد والمُهج
وماؤه قد اتت من ارفع الدرج
ممزوجة مع دم الابطال واخجلي
فاسكن رياضي اميناً من بني البشر
وكن معافىً حليف الانس والظفر

واسمع تغاريد طير الروض في السحر
واشرب زلالاً خلا من شائب الكدر
وقلْ تبارك بارينـا من الازل

ثم تقول كيف انها تعثرت قدماها اذ كانت تمشي في الحديقة فداست « زهرة صغيرة حقيرة ملقاة على الارض »... فتمثلت امامها الانسانية في احلا مظاهرها وتابعت :

«تمثلت امامي امٌ مكبة على سرير طفلِها تمسح بيديها دموعاً جادت بها عليها الفطرة لتبريد حر القلب من لظى الحيوية كما جادت الطبيعة على الازهار بالندى ليلاً لتبرّدها من فعل حرارة الشمس وتتابع بسذاجة وبشيء من الطفولة :

« فانحنيت لها هيبة ووقاراً قائلة : عفواً يا اخيَّتي لا تؤاخذيني على جسارتي وتأكدي ان ما صدر مني لم يصدر عن قصد رديء انما انا من البشر وقد اعتدت ان أرى من الهينـات ان يدوس القوى الضعيف ويزدري العظيم بالحقير ويسلب الغني الفقير . »

نرى هنا ان عناصر تتابع الفكرة ناقصةٌ وغير متتابعة السياق . فاين وجه الشبه بين ان تدوس الزهرة وهي لاهيةٌ، ولم تقصــد ما فعلت ، وبين قوي يدوس ضعيفاً عمداً وظلماً ، وعظيمٍ يزدري الحقير استبدادا وقساوة؟

انها على كل حال وجهٌ محبب واكب ذلك الرعيل الذي شاء ان يُطلّ على رحاب الانطلاق في ملاعب دنيا الانسان ، رجلاً كان هذا الانسان ام امرأة ، فكان لها كغيرها من هذا الرعيل المبتدىء فضل تعبيد الطريق النسائي الذي نراه يمتد اليوم الى جميع الميادين امتداداً ظافراً متألقاً تألق النهضة المشرئبة من مهاوي الحطة.



لبيبة هاشم

١٨٨٢ - ١٩٥٢

وجـه من الوجوه النسائية التي كانت لها التماعات في دنيـا الفكر وأسم من الاسماء التي وهجت احرفهـا على صفحات الجرائد والمجلات وعقل من العقول التي تفاعلت مع ارادات خيّرة فشاءت ان تكون هادية الى الحق والخير والانضباط ، فكتبت وناقشت وحللت ولامت وطلعت باستنتاجات ، كل ذلك على سوية الفلك الذي كانت تدور فيه حياة المرأة يوم ترعرعت لبيبة هاشم مع من ترعرع في النصف الثاني من القرن الماضي والقسم الاول من القرن الحالي ، اي قبل ان بدأ عهد الاستقلال يلوح في الافق ، وقبل ان يتحسس بالتالي انسان هـذا البلد بشخصيته المتحررة ، فينطلق من دائرة البديهات الى ارجـاء المعرفـة الشاملة ويعالج الامور على ضوء مقاييسها .

فـكان ان اتى نتاجها مطبوعا بتلك البديهات التي نراهـا ترد على اقلام اكثر اديباتنا اللواتي كتبن في هذه الحقبة من الزمن .

لقد كانت لبيبة هاشم جميلة وذات عينين جد معبرتين كما يبدو من رسمها[١] .ولا شيء يدل في ما كُتب عن سيرة حياتها ـ او على الاصح في ما عثرت عليه عن سيرة حياتها ـ لا شيء يدل على انها تزوجت .

واذا كان هـذا الافتراض صحيحا فيكون ذلك مظهرا من مظاهر الذهينة التي كانت سائدة في تلك الايام والتي كانت تتبرم من كل انطلاق

(١) رسم لها في الشرق

نسائي . فما كان يقبل الرجـــال على الزواج ممن برزت فهين معالم الشخصية المتحررة ، او كان اذا اقبلوا فليفترقوا عن زوجاتهم فيما بعد وسنرى خلال هذه الدراسة ان اكثر من واحدة من بين اديباتنا اللواتي ترد سيرتهن في هذا الكتاب لم يسعدن في حياتهن الزوجية .

ولدت لبيبة هـاشم في بيروت سنـة ١٨٨٢ وتعلمت في مدرسـة راهبات المحبة اولاً ثم في الجامعة الاميركية في بيروت .

ومن بعد رافقت اسرتهـا الى مصر حيث تقربت من اوساط وردة اليازجي وتتلمذت على يد الشيخ ابراهيم اليازجي حيث كانت تطلعـه على بعض محاولاتها في كتابة المقال ومعالجة المواضيع . فكان يشجعهـا كثيراً مما حملها على انشاء مجلة «فتاة الشرق»وهي بعد في الثامنة عشرة من عمرها اي عام ١٩٠٠ . وفيما هي تشرف على مجلتها كانت تدرس في القسم النسائي من الجامعة المصرية ، ومثل هذه الظاهرة نادرة جداً في تلك الايام وكانت المحاضرات التي القتها بدعوة من ادارة القسم تصادف توفيقاً مرموقاً .

وفي سنة ١٩١٢ عينت ، في عهد الحكومة الفيصليـة ، مفتشـة المعارف في دمشق وهذا منصب هـام جداً ، لا عـلم لي بان تولته امرأة من قبلها .

ونرافق الكاتبة في سيرتها الواردة في المنتقى « تأليف الاب بطرس الخوري » فنجدها بعد ذلك في الارجنتين تتولى ادارة جريدة «الشرق والغرب » ثم تعود الى مصر لتحرر مجلتها « فتاة الشرق »

يقال ان احد انسبائها حـاول ان يجمع محاضراتها ومقالاتها في كتاب الا اننا لم نعثر على اي مؤلف في هذا الصدد .

ولكنه بالامكان ايراد بعض مقـــاطع من مقالات مختلفة لها في

مواضيع عدة ، بحيث يستطيع القارىء ان يكوّن فكرة صادقة عن اسلوبها وعن محتوى ادبها .

ففي مقال عنوانه « زيتـــا » تقص الكاتبة حكاية الامبراطورة زيتا ، امبراطورة النمسا بعد نزولها عن العرش فتقول :

«تدهورت امبراطورة النمسا «زيتا » من فوق العرش الى حضيض الذل والهوان والآلام . فتحملت كل ذلك بصبر وشجاعة ، يرفعان مقامها بين النساء ، ويجعلانها في مصاف الشهيرات اللواتي نفاخر بهن ونترنم بمديح فعالهن .

« على مقربة من بروكسل عاصمة البلجيك ، يوجـــد قصر قديم قدّمه بعض اشراف النمساويين الى هذه الامبراطورة التعيسة لتأوى اليه مع اولادها التسعة ، بعد ان مات زوجها في المنفى مخلفاً لاسرته اليتم والفقر .

«وهناك نرى الملكة في كل صباح ذاهبة الى السوق وفي يدها كيس من الشبك ، فتبتاع ما تحتاج اليه من الخبز واللحم والبقول ، وتعود الى مطبخها ، فتقوم بطبخ الطعام بنفسهـــا . فاذا انتهت من تجهيز الغذاء تحولت الى تنظيف المنزل وخيـــاطة الملابس ورفء الجوارب وغير ذلك من الاعمال النسوية .

«وحينا تخرج الامبراطورة من منزلها ، تسير على قدميها الا اذا كان امامها مسافة بعيدة ، فتجتازهـــا بالترام ، او الاوتوبيس في الدرجة الثانية . وكذلك اولادها . وقد اكتتب بعض اغنياء هنغاريا في بروكسل واشتروا سيارة ذات مقعدين قدموها هدية باسم الامير اوتو ، كبير انجالها، في عيد ميلاده الاخير . ولكن الامبراطورة رأت ان السيارة تكلفها نفقات هي في غنى عنها ، فرأت ان تبيعها

وتودع ثمنها في احد المصارف ، تستعين به على نفقاتهـــا اليومية . فعرض عليها اولئك الاغنياء ان يقوموا بمصاريف السيارة،فأبت قائلة:

« ـ اني اقبل السيارة هدية لابني، ولكني لا اقبل التعهد بالانفاق عليها ، لان ذلك يعتبر احساناً ، وانا لا اريد احسان احد . »

وهكذا تستمر بهـذا الاسلوب ، اسلوب السرد الخالي من كل اختلاجة بشرية الى ان تنتهي :

« ولا ريب ان من يرى هذه المرأة الفاضلة في مطبخهـا تقشر البصل وتقطع البطاطس ، بعد ان كانت جالسة على عرش يجمع تحت قوائمه جزءاً كبيراً من اوروبا لا يستطيع الا ان يقف خاشعاً امامها مطأطأ الرأس احتراماً لها » .

فلا نرى عند الكاتبة ، في سياق هـــذه القصة الواقعية اي تحسس لتلك الانفعالات البشرية التي لا بد وان تكون قد زعزعت اركان نفسها ساعة تدحرج التاج عن رأسها وانتزع صولجان الملك من يمينها وهوت من عرش كانت عليه « زيتا» امبراطورة لتصير «امرأة» في الصف مع العاديين من الناس بدون « هويتها » الامبراطورية .

ان الكاتبة تسرد لنا تحركات الامبراطورة ـ الامرأة . ولا تقول لنا كلمة واحدة عن « الانسانة » التي صادفت هـــذا المصير وعن انفعالاتها النفسية .

ان هذا نقص في دقة حس الكاتبة لا يمكن ان يترك في نتاجهـا اثراً مرموقاً .

ونراها تستعمل في مكان اخر ، سلوب الحوار بين الولد والام في مقال عنوانه « الصابون » لتفهم الولد كيف يصنع الصابون ، وهي طريقة لا بأس بها لو ان الكاتبة اسكبت على جو الحوار شيئا من براءة

الطفل و«خفة الدم» في الاسئلة التي يلقيها حيث نصادف عادة الكثير من الطرائف الحلوة ، ولكنها تظل تلتزم اسلوب السرد الجاف بحيث نراها تحرص اكثر ما تحرص على ايجاد المفردات الموافقة دون الوقوف عند سلاسة الاسلوب وسرده .

وهاكم قسماً من هذا المقال :

الولد ـ من اين يأتي الصابون ياماه ؟ وهل يزرعونه مثل البطاطس ؟

الام ـ لا ، ياولدي . فان الصابون يصنع طبخاً على النار . وهو من بيكربونات الصودا والزيت يمزجان معاً ويوضعان على النار ويغليان حيناً من الزمن فيتحولان الى صابون .

ـ وكيف يتجمد الزيت ، ويصير في الصلابة التي عليها الصابون

ـ متى غلي الزيت مع المقدار اللازم من الصودا يتختر كالعجين الرخو ، فاذا برد صلب قوامه كما ترى وهو يزداد صلابة كلما مضى عليه وقت بعد الانتهاء من صنعه

ـ وما الذي يجعله قطعاً مربعة او مستطيلة او مستديرة على ما نرى ؟

وهكذا يستمر الحوار وليس فيه ولا نكتة ولا طرافة ولا شيء يزخرف هذا التسلسل او يوشيه حتى تنتهي الى تفهيم الولد كل ما له علاقة في صنع الصابون وتلوينه وتجفيفه الخ .

وفي بعض مقالاتها نراها تتطرق الى اساليب التربية والى ناحية الخلق والتخلق فتقول في مقال عنوانه « الفتاة والاشغال البيتية » :

«على الامهات ان يوجهن جلّ عنايتهن الى تدريب بناتهن على الطبخ

وسائر الاشغال المنزلية والواجبات البيتية ، وبذلك يؤهلن لان يكن يوماً ربات اسر ومديرات بيوت .

«اما التي تترفع عن الاعمال أنفة منها او كسلا فانها تكون عالة على زوجها ، بل حملاً ثقيلا ، اذ يطضر لان ينفق على الخدم والمراضع والمربيات والطهات والخياطات ، وما يكفل حفظ نظام المنزل ،وفي ذلك ما فيه كفاية من الحيف ، فضلاً عن ان الخدم مهما كثر عددهم فهم لا يقومون مقام ربة البيت من حيث النظام والترتيب والاقتصاد (انها المربية تتكلم وليس الاديبة)

«كان لاحد سراة الشرقيين ابنة يحبها ويبالغ في رفاهيتها، ولم يكن يسمح لها في دخول المطبخ على الاطلاق ، فكانت نتيجة ذلك انها ذاقت مع زوجها بعدئذ انواع العذاب والتعب لجهلها فن تدبير المنزل ، وعلى الخصوص صناعة الطبخ فكان زوجها كلما اراد اصلاح خطأ الطاهي يذهب الى اصدقائه ، فيستفهم نساءهم عن افضل الطرق لذلك ، ثم يعود وهو يعض شفاهه حسرة وألما ، مما يجده في نظام البيت من خلل ، وما يتحمله مرغماً من ملاحظات الخدم وضبط حساب النفقات . على ان الحال لم تطل به كثيراً على هذا المنوال لانه بعد سنوات مضت اصيب بالافلاس ، فكان ذلك عقاباً لتلك الزوجة وعبرة لسواها من النساء.»

وتستمر بهذا الاسلوب الجاف ، والملتصق بالبديهيات بحيث اراني مكتفية بهذا القدر من المقال لانقل الى مقال اخر كله وعظ وارشاد وتأنيب ، عنوانه :

« لا عذر للمقامر »

تقول : « واني لأجد للمقامر عذراً متى كان مكباً على مائدة

القمار ، بل لا الومه اذا بهره بريق الاصفر الغرار فلم يفطن الى ان تلك جناية يجنيها ، ووديعة لاولاده يتصرف فيها ، ولكني اعجب به وبمناقبه الشريفة كيف تجيز له الاندفاع في هذه الخطة المغـايرة ، وتبيح له سرقة الغير على تلك الصورة التي تسمونها المقامرة وهو يرى من نتائجها ، من سواه من المقامرين ، ما لا ترضاه احقر النفوس وأحط الاخلاق في العالمين. وكفاه نذيراً ما يراه من ضياع اموالهم ، وشقا أسرهم ، وتعريضهم مستقبل اولادهم على اثرهم وتمهيد السبل احياناً لنسائهم للانضمام الى حلقة القمار على ما يلحقهم في ذلك من حط الكرامة وشين الاقدار . وهل مـــا يدعو الى امتهان الرجل وتحقيره مثل تعريضه عياله لانياب الفقر ، والانحـدار بزوجته الى مهاوي الذل والقهر ، وتعويدها عملاً دنيئاً يجعل فيها ملكة حب الكسب بلا تعب ، بل الاستيــلاء على اموال الغير من غير حق ولا سبب .

«فلا اهلاً بعصر جر على الشرق امثال هذا الداء !.. وسلام على زمن قضاه اجدادنا في بسطة العيش وصفو المسرات !.. وسقياً لايام سادت فيها الجهالة ، ولكنها امتازت بالفضل وصيانة الذات...»

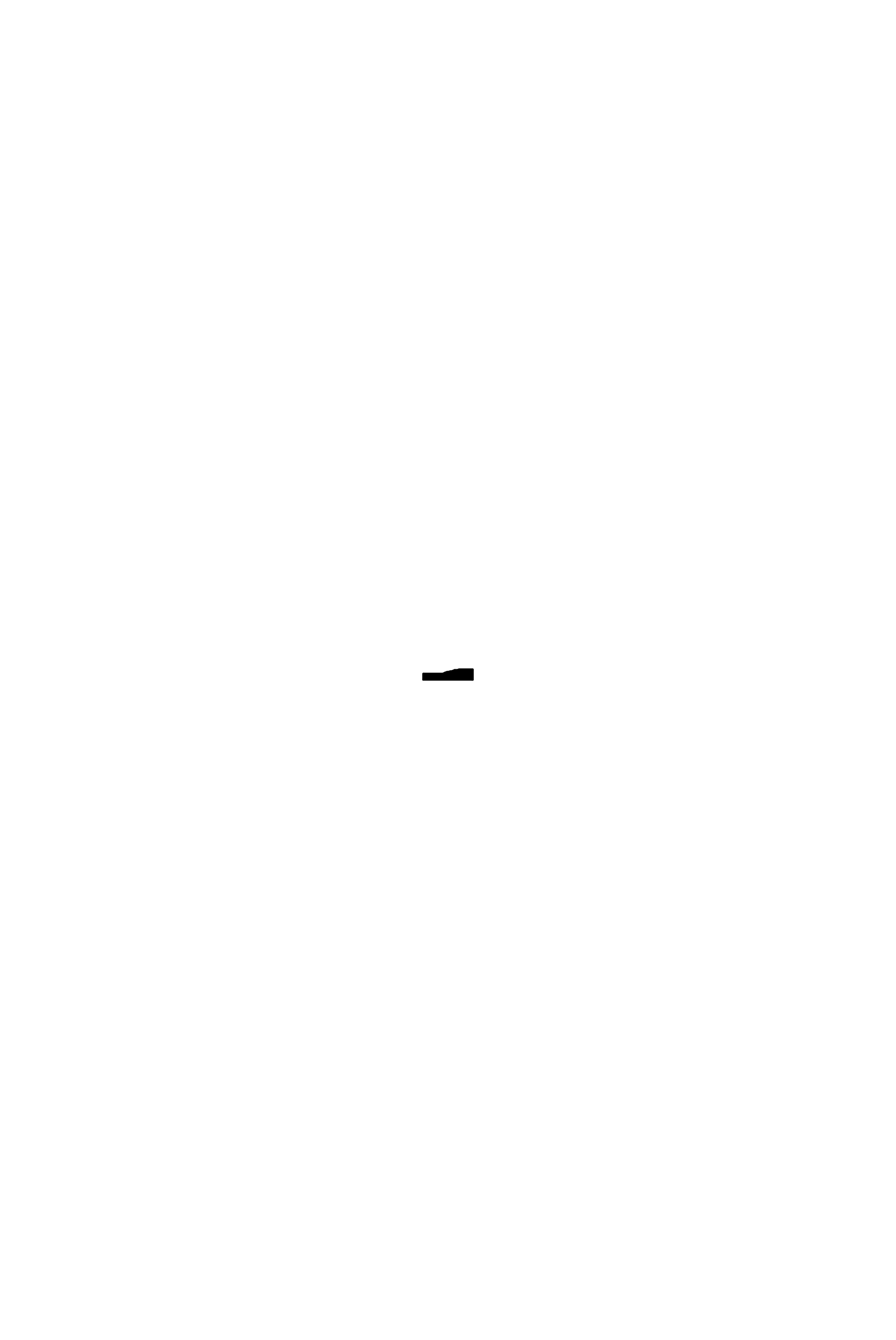
المقال طويل تظل فيه الكاتبة ترسل غضبها بعنف وهياج على آفة هي بلية البلايا ... ولا شك في ان الكاتبة على حق في ارسال هذه الغضبة ولا شك في انها على صواب حين ما تقول خاصة : « وهل ما يدعو الى امتهان الرجل وتحقيره مثل تعريضه عياله لانياب الفقر ، والانحدار بزوجته الى مهاوي الذل والقهر ، وتعويدها عملا دنيئاً يجعل فيها ملكة حب الكسب بلا تعب ، بل الاستيلاء على اموال الغير من غير حق ولا سبب . »

هذه بعض الامثلة على اسلوب الكاتبة لبيبه هاشم التي وان دقت في ضميرهـا قضايا من الخطورة بمكان فانها لم تستطع ان تعالجها الا على ضوء البديهيات ، كما انها لم تستطع ان تكون خلاقة من حيث المحتوى ولا من حيث العبارة .

انها بنت عصرها الذي حدد آفاق المرأة .



جوليا طعمه دمشقية



جوليا طعمه دمشقية

١٨٨٣ - ١٩٥٤

هي في خاطر الزمن اشراقة حس اشرأبت من سرير الاعياء عطاءً وفعلا .

فهذه الاديبة اللبنانية التي ولدت في قرية المختارة القرية الوادعة من قرى لبنان ، التي تنثر على الربى منه وفي وهاده ومنعطفاته وشيها الزاهي الجميل ، وتعلمت في مدرسة الاميركان في صيدا ، واكملت دروسها في مدرسة كفرشيما حيث تخصصت بالتدريس ، هذه الاديبة ما لبثت ان انطلقت من بين الصفوف النسائية ، وجهاً التمعت على سيمائه معالم الوعي ودلائل الجد. جوليا طعمه دمشقية التي كانت من رائدات الرعيل الاول في عالم المرأة ، هذا الرعيل الذي وثب الى المعترك في يوم كان فيه لهذا الانطلاق النسائي بعض المعاني التي لم يهزأ بها ويزدري بزيولها الا من كان فيهن ايمان الرسالة التي آلين على انفسهن تأديتها . هذه الاديبة التي اشتهرت في عالم الصحافة اذ انشأت مجلة « المرأة الجديدة » في نيسان من عام ١٩٢١ ، فكانت من اولى المجلات النسائية التي صدرت بالعربية وفازت بمكانة علمية قل ان فازت بها مجلة نسائية ، لا تزال الاوساط الفكرية تذكر حتى اليوم ما كان لها من تأثير عميق في خلق تيار فكري نسائي جديد استثار النتاج الادبي الرفيع في صفوف المرأة، وماتزال افتتاحياتها بعنوان «الى إبنة بلادي»

موضع اعجاب مقدري مواهبها لما احتوت من الجد في معالجة المواضيع والفكر الثاقب والتوجيه الصحيح ، هذه الاديبة التي نشرت في مجلات : لبنان ، والحسناء ، والفتاة ، والفجر والتي ساهمت بمجلة « نديم الصغار » سنة ١٩٢٥ ، وجريدة « النديم » سنة ١٩٣٣ ، والتي الفت كتاب « مي في سوريا » يوم زارت مي بيروت ودمشق ، هذه الاديبة التي ترأست جمعية تهذيب الفتاة ، والاتحاد النسائي ، بحيث اصبحت ملء السمع وملء البصر ، فتلفتت اليها العيون ، واختلجت لها الافئدة ، وكان ان تزوجت بدر دمشقية ، متخطية الشكليات من معالم الجوهر ، متجاوزة سدود الزيف في تعيين حدود الروابط ، هذه المنارة المشرئبة في دنيا المرأة وفي اجواء الفكر ، لم تلبث ان اصيبت بداء اقعدها عشرين سنة ...

فيا للعليلة ، وفي صوتها عفاء الرقة ، وحول ظلها أخيلة الوداعة ، وعلى طلعتها هدوء الاطمئنان .

ويا للارادة القاهرة ، تغوص في مطاوي هاتيك الرقة وتلك الوداعة وهذا الهدوء ، لتخوض حربها الصامتة على المركبات المضنية ، والعقد النفسية ، والغصص والآلام .

يا للمكابرة الوادعة ، والصامدة الساكنة في غمار ثورتها المندلعة ابداً في صميم كيانها ...

اية نظرة التياع كانت ترمق بها رفيقاً ، شاءت صباها اليف عمره يوم وثبت اليه من فوق حدود وسدود ليسيرا على دروب الحياة في تحقيق المرامي البعيدة ؟..

اية نظرة التياع رمقته بها ساعة ايقنت ان الداء سيقعدها فلن تكون على ذراعه رفيقة المسير ؟

اني لا اذكرها مرة الا وتقفز لخاطري اصابعها اذ تتجمع في اضمامة حلوة لتعابير شتى عن خلجات روحية سمت وتركزت معالمها على يدها الجميلة ، تطلق في روح الرائي متاهات كمتاهات الخيـــال يجري في لا نهاية البحار ...

وها اني اقتطف بعض مقاطع من مقالاتهـا الافتتاحية التي كانت تتوجه بها من نساء بلادها تحت عنوان : « الى ابنة بلادي » في مجـــلة « المرأة الجديدة » .

في عـــدد ايار سنة ١٩٢٢ قالت في موضوع : « الجمال والمال » :

« سيدتي

« اني اغبطك على جمالك الطبيعي لانه هبة الهية لا يمكن امهـــر المتفننين من البشر ان يأتوا بمثله . واذا استطاعوا تقليده فلا يستطيعون ان يجعلوه دائماً . لماذا ؟

« لان الجمال الحقيقي لا يأتي من الخارج بل من الداخل . الجمـــال الخارجي مهما بلغ من البهرجة ومظاهر الثبات فانه زائل . واذا كان مجلوباً بمساحيق معدنية ترك اثراً يضر بالبشرة ضرراً بليغاً .

« اما الجمال الحقيقي فمصدره الدم وهذا يتخذ قوامه من الغـــذاء والرياضة والشمس والهواء ومتى صح الدم وصفـــا توردت به الخدود ولمعت به البشرة فصارت وضائة حسنة »

وفي عدد تموز السنة ذاتها

قالت في موضوع : الاطراء والغيبة :

« كنا كتبنا في موضوع الغيبة منذ عهد قريب وقد حملنا على العودة

اليه القصة المنضمة في هذا :

« الاطراء - يظهر ان النـاس مدفوعون بالفطرة الى الغـلو في احاديثهم فيصنعون من الحبة قبة ليكون لكلامهم وقع شديد التأثير في نفس السامعين . ومن هذا القبيل الاطراء او المبالغة في المديح . فـان الشرقيين عموماً والسوريين خصوصاً قد اعتـادوا كثرة الاطراء في احاديثهم وكتاباتهم فصار السامع يحتقر المديح ويزدريء احياناً بقائله لاعتقاده ان كلمات مديحه انما هي بنيّات العـادة لا بنيّات القلب . وكثيراً ما نرى الجرائد تجازف بالالقاب فتعطيها لبعض الناس من غير كيل ولا وزن حتى يصير العامي افندياً والافندي بيكاً والحضرة سعـادة والسعادة عطوفة الى آخر ما هناك من ضروب التفنن في التملق .

« ولا اظنك يا اختي الا مطلعة على اكثر ما يكتب على ظاهر غلف الرسائل من عبارات التبجيل . »

وتستمر بوصف اشكال الاطراء ثم تنتقل الى الغيبة فتقول :

« الغيبة - هذه الصفة الذميمة منتشرة في جميع الاقطار وهي على اشدها عندنا وخصوصاً بين من يغرن من السيدات .

« فالغيبة مذمومة ولو كان ما يقوله المغتاب فيمن يغتابه صحيحاً ، فكيف به اذا كان القول كذباً .

« قصت علي صديقة قصة فيها عظة وعبرة قالت:

« كان يوم الاثنين موعد استقبالنا فزارني خمس من النساء المتمتعات بشيء يذكر من العلم والمال والادب انهن كن جميعاً من المغتابات اللواتي يتلذذن (بفش) قلوبهن عند احتدام الحدة .

وبعد ان اقمن ساعة مدحت في اثنائها كل منهن جميع صاحباتها حتى كان يخيل لمن لا يعرفهن انهن شقيقات او متآخيات . ولاحظت ان كل واحدة لا تحب ان تنصرف قبل الآخريات خوفاً من الغيبة . واخيراً ودعت احداهن ومضت فجعل الباقيات (يركبن مقلتها) ويقلن فيها عكس ما قلنه لها بحضرتها ، وبعد ان كان ثوبها عنوان الجمال صار عندهن مثال القبح مثل حديثها . ثم ذهبت الثانية والثالثة فكان نصيبها من الباقتين نصيب الاولى .

« وهنا ظهر القلق على اشده لان كل واحدة من الباقيتين كانت تخاف الانصراف قبل الاخرى واخيراً ذهبت احداهما .

«وبينما كنت ارافقها الى خارج الباب حانت مني التفاتة فرأيت السيدة الباقية تحدث الخادمة التي كانت بقربها وتحشو اذنيها بكلام اغتياب يظهر انها تعرف سياقه عن ظهر قلبها . وبعدما انصرفت السيدة توجهت الى المطبخ فكان اول ما طرق مسمعي ذم الخادمة لهذه السيدة امام باقي الخادمات .

« سمعت هذه القصة وصدقتها بحروفها، لاني اعلم جيداً ان المغتابات كثيرات عندنا »

وتنهي مقالها بهذا التوجيه :

« فالى الامهات والمدارس والفتيات الراقيات والسيدات الفاضلات نوجه رجاءنا وعليهن نلقي اتكالنا لاقتلاع هذه الشائبة الشائنة والافة الفاتكة » .

وقالت في عدد كانون الثاني سنة ١٩٣٣

سيدتي

« في مطلع هذا العام الجديد الباسم لنا من وراء سجوف المستقبل نلتقي اليوم على شاطىء جديد من الامل .

« جميل هذا التلاقي واجمل منه هذا الامل المنبعث الينا من النجاح الذي انتجته نهضتنا النسائية في العام الذي نودع .

« حلقة من القرن العشرين عقدت مع ما سبقها من الحلقات وعليها من يد المرأة اجمل اثر .

« واذا كان هذا العصر قد امتاز بغرائبه العلمية عن سائر العصور فافضل مزاياه في نظر الحكيم المنصف مـــا بلغته المرأة من السؤدد والمكانة الادبية »

انها مقتطفات نقلتها كيف ما اتفق من اعداد مجلتهـــا « المرأة الجديده » في جزئيها الاول والثالث .

وعثرت وانا اتصفح اعداد مجلتها على رسالة منها بعثت بها الى مي التي راحت بعدها تراسل المجلة بصورة دائمة في باب عنوانـه « احاديث من بعيد » في هذه الرسالة ،

آنستي ،

« لو لم اعرف شيئاً عنك ممن عرفك تماماً لمـا اقدمت على هـــذا الخطاب ، ليس لاني لم اكتب لاحد من قبـــل ان اكون عرفته شخصياً. بل لاني كنت في ريبة من حقيقة الكائن الزجل في لفظة « مي »

« نعم قد قرأت لك كتابات كثيرة لكني اظنهـــا صادرة لا من جسد بل من روح تحوم في فضاء مصر لا قرار لها لتهبطه ولا هيكل

تأوي اليه ، ليس لاني افقد القوة الدماغية المصورة ، فانه لم يسبق لي ان اقرأ شيئاً الا وسجلت لصاحبه في نفسي صورة بشرية حسية اودعها شبكة عيني ومخيلتي وشد ما صدقت تصوراتي ـ الا اني كلما قرأت لك شيئاً جديداً ما كنت الا لازيد حيرة من امرك وابتعاداً عن كل الصور والمظاهر البشرية التي يمكن ان اشبّهك بها .

« وعلى هذا بقيت عندي روحاً مجردة عن كل شيء مادي لا اصدق وجود فتاة حقيقية باسم « مي » الى ان جرى لي حديث طويل مع صديقيك الشاعرين الياس فياض وامين تقي الدين وهما اللذان اشارا علي لمكاتبتك واكدا لي وجودك حقيقة لا خيالاً

« ولدي عمل آخر جديد يزيد في ثقة وتأكيداً هو كتابك الاخير الى صديقي الاستاذ جبر ضومط وهذا الكتاب عينه كان لي السلاح الماضي الذي به استنطقت بعض المكابرين فأقروا (ان المرأة في بلادنا قد سبقت الرجل في فن الكتابة والتأليف) فادامك الله ايتها الانسة فخراً لجميع الشرقيات ودرة نباهي بك اينما حل الادب وراجت اسواقه .

« اما الخطوة الاولى الذي اتخذها الآن في سبيل تعارفنا هي تقديم لحضرتك العدد الاول من مجلة «المرأة الجديدة» التي انشأتها خصوصاً لنشر غاية (جامعة السيدات) وفائدة جميع السيدات من جميع الطبقات والمذاهب ولدى اطلاعك عليه لا شك تفهمين كل ما اقصده من هذا العمل الصحافي اي انه لم يدفعني اليه الا الخدمة المجردة فقط .

« اريك مثالاً لأعمالنا وجهادنا في سبيل النهضة النسائية في سورية وانا على يقين تام ان ليس من سيدة اخرى تخدم هذه النهضة الادبية

المنشودة بقدر ما تخدمينها انت في كتاباتك السامية المؤثرة .

« وعلى رغمي اختم هذا الحديث مصافحة اياك بكل محبة واخلاص »

وقد كانت الأديبة عفيفة كرم تراسل « المرأة الجديدة » برسائل شهرية ايضاً تحت عنوان « رسالة من المهجر » في نفس الحقبة التي كانت فيها مي تراسلها .

وما لبث حتى وردت « رسالة من المهجر» تنعي عفيفة كرم ،فرثتها بهذا المقال الذي عثرت عليه في « المنتقى » والذي يحس فيه القارىء التياع الكاتبة على زميلة كانت تقدر صفاتها ومزاياها .

قالت :

« ماتت عفيفة كرم ماتت الأديبة الكبيرة والعاملة النشيطة .

« ماتت قبل ان ترى نتيجة جهادها الكبير في سبيل النهضة النسائية . قبل ان ترى آمالها محققة في الرقي الذي تطلبه لوطنها .

« ماتت الأديبة التي ترجمت وألفت الروايات ، والتي ملأت اعمدة « الهدى » و « الاخلاق » و«المرأة الجديدة» ببنات افكارها السامية. ماتت العاملة النشيطه التي ذهبت الى بلاد المهجر وهي لا تملك من حطام الدنيا شيئاً يذكر وتركت بعدها ثروة احرزتها بجهادها ولم تمهلها يد القدر ان تتمتع بها .

« ماتت المرأة التي حطمت قيود التقاليد وكانت من اعظم العوامل المساعدة على تحطيم قيود الجهل التي ترسف بها شقيقاتها .

« ماتت السيدة التي كانت قوة كبيرة تعتمد عليها النهضة النسائية في تحقيق آمالها .

« ماتت المهاجرة التي ظلت رغم بعدها عن الوطن ، قوة صحيحة

تعمل لتحرير المرأة الشرقية . فاذا نحن بكيناها فانما نبكي صديقة صادقة ، وعاملة نشيطة ، واديبة كبيرة ، ومرشدة حكيمة ، ووطنية مخلصة ، وامرأة فاضلة ، وزوجة صالحة ، وقوة عظيمة ، كنا نرتكز عليها ، ونستند اليها ، ونستعين بها في سبيل تحقيق امانينا،نحن النساء خصوصاً .

« ماتت تلك القوة فتركت فراغاً عظيماً في صفوف المجاهدين والمجاهدات في سبيل الوطن والنهضة . فلا غرو اذا بكيناها وبكيناها كثيراً . لا غرو اذا بكتها الصحف والمجلات،بكاها الرجال والنساء، بكاها الادب واهله ، والفضل وذووه ، فان حالتنا الحاضرة ، لسوء الحظ ، لا تتحمل فقد مثل هذه القوة المعنوية التي كانت في انفس عفيفة كرم .

« ان فقد مثل هذه القوة خسارة لا تعوض لأننا لا نزال في بدء حياتنا الصحيحة ، لا نزال في حالة يصعب معها فقد مثل هذه القوة ، ان نجد من يحل محلها .

« اني ابكيك ايتها الراحلة الكريمة العزيزه طالبة من الله ان يحقق آمالك وآمالي فيبلغ هذا الوطن من الرقي والتقدم ما كنت ترجينه له. ان تصبح النهضة قوة بمجموعها لا بافرادها ، فيكون فيها لكل قوة تفقدنا اياها يد الموت عوضاً يقوم مقامها .

« رحمك الله عداد حسناتك ! رحمك الله بقدر فضلك وادبك وكمالك . وعزانا بما تركته لنا من الآثار الحسان عند فقدك »

اما هي جوليا طعمه دمشقية فقد امضت عشرين عاماً على سرير الداء ، ملاك صبر واعجوبة من اعاجيب الصمود ...

لقد امضت عشرين عاماً على سرير الداء جميلة الطلعة ، زاهية

الأجواء ، سكبت خلالها يناعها كل يناعها المطل من عينيها الزرقاوين الواعيتين ، المدركتين مدى مأساتها والمذعنتين اقسمتها ، همسات ارشاد يفوح منها اريج الحب وظيب الصفاء ....

وما قطعت يوماً ذلك الخيط العصب الذي بقي يشدها الى بني وطنها ،

تغضب لكرامتهم ،

وتثور لحقهم ،

توجه وتقود ، آية حس ورائدة مجتمع ، تبعث روح المثابرة على المضي في دفع القافلة الى امام ، مقعدة ، كسيحة ، عيية ...

وان كان للمعجزات ان تتحقق ، فقد تحققت اروعها فيها يوم قيل لها ان ارادة الشعب قد انتصرت ، واطلق سراح المعتقلين في تشريننا الخالد .

فما سمعت اهازيج الانتصار ، تطلقها حناجر ابناء هذا البلد وبناته ، حتى نهضت ، وقد هزتها نشوة الفوز ، تسير طيفاً يتهادى ، الى شرفة المنزل لتستمتع برؤية الجماهير سكرى بنشوة الفوز هذه وبما حققته الارادات الصامدة من المرامي التي وهبت لتحقيقها ، عصارة قلبها وجهد نفسها ...

فك اسر الدولة يومذاك اجل !

وكان الاستقلال ...

ولم تكن المرأة بعيدة عن ذلك المجال !

لقد كانت في الطليعة ...

فكيف لا تهتز وتنهض وتسير ، هي التي هزت المرأة في بلادها وانهضتها وسيرتها الى

الطليعة ؟ ...

ان معجزة قيام الكسيح ومشيه ، ما كانت ولن تكون في بلاد الرسالات ، الا بفضل الرسالات ...

لقد كانت قنديلاً اضاء من زاويته الخطى ترسم مخططات بدت لها من عل وكأنها وشوشات الهدى تسرّبها لاناس غرقوا في اضاليلهم ، وجرفتهم غمار الحياة الهوجاء ...

توفيت في سنة ١٩٥٤ ولكنها ، ستظلّ في خاطر الزمن اشراقة حسن اشرأبت من سرير الاعياء عطاء وفعلا !





عفيفة كرم

عفيفة كرم

١٨٨٣ – ١٩٢٥

على هضاب ينطلق منها المتطلع الى الآفاق تمتد وتتباعد، على ربى، رأسها الى الجبال يستند واطرافها الى الامواج تحنو ، يشجيها هدير رتيب، على اكمة نثرت فيها يد الانسان معالم وجود الانسان فكانت بلدة عمشيت ...

على تلك الهضاب وهاتيك الربى وهذه الآكام ، كانت تتكون في الطفلة عفيفة كرم ، تقفز وتزهو في غمرة الضياء وانفتاح الآفاق ، شخصية الكاتبة المفكرة ، تتكاثف في نفسها رؤى الجمال ، وتهتز في نفسها ماهيات الوجود ، ويختلج في نفسها التوق الى التعبير عن شتى احاسيس الانسان .

في بلدة عمشيت ترعرعت .

عمشيت التي قال فيها الرحالة الفرنسي ارنست رينان ، يوم جاء منقباً عن آثار بيبلوس وقد اختارها مركزاً لاقامته مع زوجته وشقيقته هنرييت التي توفيت ودفنت فيها : « اني اصرح مع امرأتي وشقيقتي ان عمشيت كانت لنا فردوساً» ،وعبرت زوجة هريو ، الرجل الكبير الذي توارى امس فتوارت معه حقبة من تاريخ الفكر الفرنسي والقيم الفرنسية ، عبرت عن شعورها ازاء هذه البلدة قائلة :

« ان ما شاهدته في اقليم هذه البلدة واعتداله لهو فوق ما كتب

عنها » .

عمشيت المنحنية وداعة على الشطآن ، والمشرئبة زهوّاً الى الجبال والهضـــاب ، وقد استهوت موريس باريس وتشرشل وهنري بوردو وتارو ، وخصها امين الريحاني في كتابه « قلب لبنان » بدرس تاريخي جعله ينتهي الى المقارنة بين لبنان وبريتانيا الفرنسية التي تشبه طبيعـة ارضها طبيعة ارض لبنان « والتي لابنائها ما لانباء لبنـان من البساطة الريفية والصلابة الجبلية ، فقال :

« ان بين البلدين اللبناني والبريتاني شبهاً تاريخياً ، فقد احتـــل الرومان بريتانيا كما احتلوا لبنان في قديم الزمان ، واستمرّ ذلـــك الاحتلال في البلدين اكثر من خمسمائة سنة . وقد تشبث للبريتانيون بوثنيتهم كما تشبث اللبنانيون ، فما تنصروا جميعاً قبل القرن الخامس . وقد حارب البريتانيون في سبيل استقلالهم كما حارب اللبنانيون قديماً ، فكان الاستقلال الذي احرزوه لمعـات في الظلمات ، او ظلمات بنفسجية ناعمة ، ذات هدآت وهجعات » .

ففي هذا الغنى بالتفاعلات العقلية وهذا الفيض من اضواء المعرفة حملتها ادمغة منقبة باحثة ، ولدت عفيفة كرم في ٢٦ تموز سنة ١٨٨٣ وتدرجت طفلة في اجوائها ، وتلقت دروسها الابتدائية بين جـدران مدرسة قامت على احدى روابي البلدة ، على يد الراهبة ارسلا–دومينا ابنة مخايل منصور بو يزبك عبيد – التي وهبت الجمعية المريمية مـــا ورثته لبناء هذه المدرسة ، وكانت تسافر الى المهجر جامعـة المال في سبيل اقامة دير في بلدتها عمشيت يعنى بتعليم البنـــات . فتعلمت اذن ابسط قواعـد القراءة ، فهي عصاميـة اذ بلغت هذه المكانة في عـالم الكتابة .

وما لبث ان ظهر ميلها المطالعة وولوج عالم المعرفة .

فما ان شبت حتى انطلق عقلها يعبر عن آرائهـــا في شتى الموضوعات ، ووعث في نفسها استعداداً للكتابة والتأليف رغم انها لم تنل من العلم الا القسط اليسير في مدرسة القرية .

وظلّ هذا الميل يشتدّ حتى بعد زواجها من نسيبها حنـا صالح كرم ، وبعد سفرهـــا معه الى الولايات المتحدة حيث انكبت على المطالعة واتقان اللغة العربية . وانصرفت بكليتها الى هـذا النمط من الحياة تعبىء فراغاً خلفه في نفسها عدم انجابها الاولاد .

وراحت تدبج المقالات في الصحف والمجلات ، حتى ذاع صيتهـا واصبحت من اشهر الكاتبات اللبنانيات في الوطن والمهجر .

وتولت تحرير جريدة « الهدى » ستة اشهر في نيويورك يوم سافر المكرزل الى باريس .

وانشأت سنة ١٩١١ مجلة « المرأة السورية » التي بقيت سنتين منبرا تتبارى عليه قرائح الكتاب والكاتبـات في شتى المواضيع القيمة من اجتماعية وسياسية وعلمية . وأسست سنة ١٩١٣ مجلة نسائيـــة شهرية دعتها « العالم الجديد » لم تقلّ عن سابقاتها الماماً بالشؤون الفكرية .

واستهوتها كتابة الروايات ، فألفت « غادة عمشيت » و « بديعـة وفؤاد » و « فاطمة البدوية » و « ملكة ليوم » و « ابنة نائب الملك » و « نانسي ستاير » و « محمد علي الكبير » ، طبعت جميعها في مطبعـة الهدى وكان الاقبال عليها شديداً بحيث نفذت جميـع نسخها .

اشتهرت بحبها لبلدتها وحنينها الى الوطن الذي ظلت تتحدث عنه ، وتذكره في معظم مقالاتها في المهجر ، وكانت تقول في عمشيت « بلدتي المحبوبة مني حتى العبادة » .

ولقد عانيت ، في سبيل الحصول على شيء من نتاج عفيفة كرم ما عانيته في سبيل الحصول على نتاج سواها من الاديبات اللواتي اتناول سيرتهن بالدرس ، فمن تجواب في دور الكتب ومكتبات المدينة ، الى زيارة بلدتها عمشيت ، فلم اجد نسخة واحدة عن اي من مؤلفاتها .

وقد طاف معي السيد اسكندر وهبي على بعض الاسر العمشيتية علنا نعثر على شيء من رسائلها التي يبدو انها كانت رائعة وقد قال الاستاذ اسكندر وهبي في الرسالة التي بعث بها الي بعد زيارتي لعمشيت :

« جهدت في التفتيش املاً بالوصول الى البعض من آثار المرحومة عفيفة كرم فلم اجد الا رسالة تعزية مكتوبة بخط يدها واخرى بعد وفاتها من زوجها عليها صورتها في آخر ايامها . وكم كنت اتمنى ان اقع على احدى رسائلها بغير المناسبات تظهر رقة عاطفتها وعلو شخصيتها وهي افضل مجال لدرسها في داخليتها »

واني لاكرر هنا اسف الاستاذ اسكندر وهبي فكم كنت اتمنى ان اعثر على بعض من هذه الرسائل التي امتدحها لي .

ورحت اطوف المكتبات الصغيرة والقديمة ، وكدت ان اكتفي بمقال منها عثرت عليه في « المنتقى » للاب بطرس برتو الخوري ، رئيس دير القطارة ، عندما وقفت ، وانا اكاد اقطع الأمل ، على سلسلة مقالات منها كانت ترسلها الى مجلة « المراة الجديدة » تحت عنوان « حديث المهجر » اقتطف منها ما يلي :

قالت :

يا ابنة بلادي

« ان صاحبة هذه المجلة الغراء تناديك في كل عدد من اعداد مجلتها المفيدة بهذا الاسم الحامل كل معاني الحب والعذوبة والذوق . ومـا جئت انا لأتقلد صوتها اليك وفيه جمعت الحان الاخلاص والنصــح والبلاغة . ولا يمكن لمثلي ان تزيد على اقوال مثلها كلمة واحـدة . بل لا تيمنّ بهذا النداء العذب على قلبي ، اذ في هاتين الكلمتين آوت كل مقاصـد نفسي امانيهـا . وبهـما انحصرت جميع تضحياتي وخدماتي ولذاتي .

« فهل تسمحين لي يا ابنة بلادي المتخلفة – ان اخبرك شيئـاً عن ابنة بلادك المهاجرة ؟

« هل تعيرينني سمعك ايها النصف الباقي في البلاد التي نحبها معاً ، لاصف لك بعض ما تودين ولا شك معرفته عن احوال النصف الذي ترك بلاده مسيراً لا مخيراً وامّ بلاد الغرب حباً بوطنه وليس بغضاً فيه .

« ان بينك وبين شقيقتك هذه ايتها العزيزة خليجاً من ماء وجفاء . بلادك فقيرة فلا اسطول لديها من بواخر الاستعدادات تحمل الينا قلبك وفكرك من حسن التفاهم والمودة ورغبة الاتصال كما ان بلادنا الغنيــة تلهي افكارنا عن تسيير مثل هذه البضائع من المدينة الحديثة والعصرية المستحبة والحرية والديمقراطية وحب العمل اليك .

« فالتقصير من الجانبين باد للعيان وهو لسوء حظنا كلنــا ، ويا للاسف . اقول هذا ليس بلهجة المؤنبة بل المعاتبـة ، اذ في واحدة من هؤلاء المهاجرات اللواتي ينشدن وحدة الارواح والقلوب وان نــأت الدار ، وشطّ المزار ، اذ – فيها وحدها – كل الأمل باتحاد النصفين تحت سماء الاوطان الصافية » .

وظلت تتناول سلسلة احاديثها عن وضع المرأة المهاجرة في باب « حديث المهجر » وقد لاقت هذه السلسلة استحساناً كبيراً بحيث توجت مجلة « المرأة الجديدة » احدى مقالاتها بالكلمات التاليات :

« كل من تتبع ما جاء تحت هذا الموضوع « حديث المهجر » لابد يسلم معنا انه لم ير لكاتب او لكاتبة صورة جلية واضحة لحقيقة اختنا المهاجرة كالتي رسمها قلم عفيفة كرم نتيجة لدرس دقيق واختبار طويل .

«فاننا نثني على السيدة عفيفة ونرجوها مداومة مواصلتنا بهذه الفوائد الجليلة التي لا يمكن الحصول عليها الا بمعاشرة ارقى شعوب الارض علماً وادباً » .

اما المقال فهذا مقطع منه :

« هل خيل اليك عند مطالعتك رسائلي الماضية انني ملت الى تفضيل اختك المهاجرة عليك ؟ اذا كان ذلك ما حدث فهو خطأ بيّن . اذ ليس قصدي من هذا الايضاح « المغالاة والمدافعة » كما ابنت لك . بل اظهار حالة انت تجهلينها ، وتعريفك الى شقيقة بت واياها على طرفي نقيض . هذا جلّ ما ابتغيه . وفي هذه العجالة التي اروم جعلها اصفها لك كسيدة في الاجتماع .

« هنا اري القلم الذي يتوخى في سيره الصدق المجرد ولو اغضب ، يجنح لجهتك اذ الحقيقة وحدها مطلبي في هذا التحديد الذي اتوخاه .

« اجتماعياً تريننا في المهاجر نواجه مدينتين متناقضتين احداهما شرقية بحتة ، والاخرى اميركية محضة . ونحن في الاثنتين مقصرتان عن بلوغ الدرجة التي نريدها لاسباب عديدة من اختيارية واضطرارية من اهمها ما يلي :

« اولا : اننا في البلاد الاميركية بعيـــدات عن الوسط السوري البحت . ولولا محبة كامنة في الصدور لذلك الوطن المفدى وغيره من افراد بيننا سعوا ولا زالوا يسعون لاحياء اللغة العربية الرابطة الوطنية المتينة لما كان الآن على هذه العلاقة بكم . ولكان اندغامنـا قد تم . وامتزجت هذه القطرة التي هي « نحن » بالخضم الواسع الذي تسربت اليه .

« ثانياً : لأن مصالحنا وهي الرابط الثاني الاهم لقلوب الامة بهـا تضطرنا للسير بموجب قوانين واصطلاحات وعادات القوم الذي نحـن بينه . وقد سرنا عليها هذه السنين الطوال فكادت ان تكون لنا عادة بل طبيعة ثانية .

« ثالثاً :لاننا ندافع بكل قوانا لحفظ تقاليدنا وعاداتنا ومصطلحاتنا وشتان بين من يكون يجرب السباحة مقاوماً التيار الذي يجرفه . ومن يسير معه تاركاً له قذفه للجهة التي يسير بها .

رابعاً : « لان القوة العظمى التي هي اولادنا تجذبنا جذباً قوياً لا يقاوم ، من وسط مدنيتنا الماضية لوسط مدنيتهم الحاضرة . ولا شك بان الغلبة تتم علينا بعد مرور هذا الجيل . هذا اذا لم تحدث الاعجوبة التاريخية التي اشرت عنها في رسالة سابقة . ونجد الى الرجوع للوطن القديم سبيلاً ...

« فاذا جاءت النتيجة كما ترغبها كل منا ، ان يكون لنا في الوطن القديم مدنية شرقية متجددة مبتكرة لا غربيـــة مقلدة ، تضاهي المدنيات الغربيات تقدماً ورقياً ، ولا تكون منهـــا ، فالاسبقية ستكون لك في وطنك ، حيث هي مدارسك ، ولغتك ، وعاداتك ، ومجالسك . اما اذا كان المستقبل يخبىء اندغاماً قد يكون محتوماً

بمدنيات الغرب ، وصيرورتنا قسماً منها ، لا نوعاً آخر مثلها ، فاختلك المهاجرة ستكون السابقة بدون ريب لما توفر لهـــا من الوسائط والقوى والاستعدادات »

لا يسعني هنا الا ان اكرر ما جاء في مقدمة هذا المقال من اطراء على الكاتبة . فمما لا شك فيه هو ان هذه السلسلة تضاهي في جديتها ، ولمحة الفكرة فيها ، واسلوب التعمق ، مقالات اشد الرجال جدية ووعياً وتعمقاً .

واما المقال الوارد في « المنتقى فعنوانه » آفة الصداقة المصلحة » قالت :

« خلق الله ، في هذا العالم الجميل امرأ فيه خلاصة ذلك الجمال لانه يسمو على كل انواع الجمال جمالا ويفوق كل وسائل اللذة لذة : اذ انه روح الاشياء كلها وسيدها .

« ومع كل عظمة هذا الشيء ، وسموه وجماله وجدت له كما لكل الاشياء المخلوقة ، آفة لولاها لكان قوة فوق المخلوقات كلها .

« هذا الشيء العظيم هو الصداقة » .

« وآفته هي « المصلحة » تجذب الصداقة كما تدفعها كلما اقتضى الامر ، فهي مبتداها ومنتهاها وسبب وجودهـــا وعدمها في وقت واحد .

« يرى فلان مصلحته تدفعه الى مصادقة اخر فيندفع بكل قواه ساعياً الى الغاية وادراكها واذ يقترب الى نور الصداقة المنعش ويرى تلك المصلحة نفسها تدفعه بيدها الاخرى عن ذلك النور ، يبعد عنـه ليعيش في الظلمة او ليدركه من جانب اخر .

« لذلك مع عظمة الصداقة نرى المصلحة اعظم منها الا مــا ندر

جداً لانهما ابنتا الاجتماع وصديقتان متحابتان الا قليلاً .

« تبني النفس البشرية قلعة الصداقة ، وتسلحها بمدافع الامال ، وتملأها من ذخيرة السعادة واللذة ، وتنقش جدرانها برسوم السلوى والطمأنينة والارتياح ، فتأتي مدرعات المصلحة بغتة وترمي تلك القلعة بقنابلها فتهدمها .

ما لها وللاعتدة الحربية والذخيرة المدمرة ! ثم ما اسمج « مدافع الامال » و « قلعة الصداقة » و « مدرعات » المصلحة ! بقي عليها ان تنظم « جيش الصداقة » لتكر به على جحافل « المصلحة » .

الا انها كانت تدين بالقيم لا شك في ذلك وكانت عاطفية وفي عاطفتها شيء من السذاجة الحلوة كقولها :

«ينصب القلب البشري له معبوداً من تمثال الصداقة ، يقدم له ذبائح الاخلاص ، ويحرق تحت قدميه بخور الثقة والسعادة ليل نهار ، فتأتي المصلحة ، وبيدها مطرقة الانانية ، وتسقط على رأسه بالضرب فتحطمه امام عابده وهو ناظر منذهل .

« تبني الثقة عشاً لها في قلب الصداقة مؤلفاً من ريش اسرارهاوقش وقش افراحها واحزانها ثم تضع داخله بعض امالها لتنقف ، فتدب اليه افعى المصلحة وتأكل كل ما فيه من البيض امام عينيها الباكيتين .

« فكم هي خساره النفس البشرية عظيمة اذن بفقدان الذ الامور واعظمها واجلها .

« ان الصداقة الحقيقية صارت بهذه الايام شبه كأس ملأى من خمر السعاده تدنيها ايدي الظروف والاقدار او الحظوظ من افواه كثيرين ، وانما قبل ان يتموا تجرع ما فيها تضربها يد المصلحة فتسقط على الارض ويهرق ما فيها » .

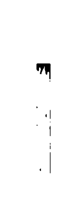
تلك هي الكاتبة عفيفة كرم التي اشتهرت بين بنـــات جنسها وتولت اقامة صلة بـــين المقيمة منهن والمهاجرة ، ووجهت والفت وناضلت حتى ذاع صيتها في الاقطـار العربية ونالت منزلة رفيعة في الاوساط الفكرية جعلتها ان تكون في طليعة الكاتبات اللبنانيات .

توفيت في مدينه شرينبوت لويزيانا سنة ١٩٢٥ بانفجار بالدمـاغ وهي بعد في اشراقة اليناع والنضج .

فلان حق لعفيفة كرم اعتدادها بانها من عمشيت ، من تلك البلده التي استهوت رينان وموريس وتشرشل وهنري بورد ووتاروو والريحاني فلا اقل من ان يحق لعمشيت بان تعتز بانتساب عفيفة كرم اليهـا .



انيسة الشرتوني



انيسة الشرتوني

١٨٨٣ - ١٩٠٦

ان ما يظل في الخاطر ، بعد الاطلاع على النتاج القليل الذي خلفته الكاتبتان انيسة وعفيفة شرتوني هو الظرف والفتوة والتوق الى تحديد المفاهيم الاجتماعية ، والارادة الصادقة ، وقد اقول الساذجة بتوضيح ما يصادفه الانسان من معقدات خلال سيره في هذه الحياة ، هذا ما يعلق في خاطر القارىء ولا يبقى فيه اثر لاراء او نظريات جديدة ، او اسلوب خاص جدير بان يستوقف .

فما نجده في مقالاتهما التي جمعها الاستاذ مخائيل الشرتوني في كتاب سماه « نفحات الوردتين » لا يعدو ان يكون خواطر عادية تلتمع في ذهن كل انسان ساعة يعي نفسه ويبدأ العملية العقلية ، وبكلمة اوضح انه مجموعة بديهيات .

على انه في كل حال محاولة صادقه بريئة لقول الصواب ، وان يكون فيها بعض الاعتداد الغافل ، ان مثل هذه الخواطر العادية التي صيغت مقالات طويلة انما هي في ذهن وعلى لسان كل انسان لهميزة العقل .

وقد يعود سبب هذا الافتقار الى المحتوى في اثر الكاتبتين انيسة وعفيفة شرتوني ، الى موتهما باكرا جداً فانيسة ماتت عن ثلاث وعشرين عاماً .

وانيسة هي موضوع حديثنا الان اما عفيفة فللحديث القادم .

ولدت انيسة عام ١٨٨١ وتوفيت عام ١٩٠٦ .

وتلقت الكاتبتان علومها اولا في مدرسة الراهبات الناصريات ثم في مدرسة عين طورة لراهبات الزيارة ، ومدرسة التقدم التي انشأها المطران يوسف الدبس في بيروت .

ولوحظ عند الفتاتين ميل الى الكتابة لم يكبته الوالد ، كما كان طبعياً ان يجري يومـــذاك ، بل على العكس عني بهذا الميل وشجعه ورعاه فالعلم مرغوب في اسرة الشرتوني .

وفي سنة ١٩٠٢ تزوجت انيسة من احد انسبائها الشاب ميخائيل الخوري الشرتوني ، فرزقت منه بعد ثلاث سنوات بنتاً سمتها «نضيره» وانطلقت بعد امومتها في اجواء الكتابة وهي في زهو الامومة هذه والشباب الغض . الا ان الحياة كانت قاسية عليها فاصابتها حمى خبيثة لم تمهلها اكثر من ثلاثة ايام .

اما مأتمها فتروى السيدة فتحية محمد انه كان مأتماً مهيباً ، « كانت الكآبة فيه مرسومة على الوجوه » .

وبعد وفاتها بخمسة وخمسين يوماً توفيت طفلتها « نضيرة » ، في شرتون .

انها لمحة خاطفة عن سيرة هذه الكاتبة الظريفة التي اصطادهـــا الموت وهي بعد في اطلالتها المشرقة على الحياة ومآتيها ، وفي نفسها كل ما في الشباب من اماني عذاب وأرادة مشرئبة لاغناء هذه الحياة بمـا تذخر به النفوس في هــذا العمر من كنوز السخاء بالعطاء والتفتح العفوي على شؤون العالم .

فكان لها اسلوبها في هذا العطاء .... واسلوبها ذاك كان في نـثر

خواطرها على بيئتها .

ونعثر في الكتاب الذي اعدته فتحية محمد « بلاغة النساء في القرن العشرين » لناشره حسين حسنين ، على مقال لها عن « المتنبي والبهاء زهير » تقارن فيه بين اسلوبهما في الشعر ، فتحكم على اسلوب المتنبي بالغموض وصعوبة الادراك ، بينما ترى ان اسلوب البهاء زهير سهل واوضح المعاني .

فتقول في المتنبي :

« هو من اهل القرن الرابع للهجرة ، يشبه كريماً يقود الجمان وقلائد المرجان ، ولكن بوجه مقطب عبوس ، فكأنما اعتمد على ان لا ينعم بجواهر افكاره الا على من يحتمل تعبس عبارته ، اي على ان يفهم لسانه ويزيح سجوف الغموض عن تلك الوجوه الحسان . وكذلك اقبل العلماء على شرحه ليكشفوا للناس على ما فيه من كنوز المعاني . وكفى به برهاناً على ان في شعره غموضاً ، ولا سيما على من هم من اطفال الادب او احداثه . فلا اكتمك اني كنت واياه اول ما اخذت اقرأه كالمختلفين لغة على ان كلا منهما تعلم لغة الاخر ، فكنت كمن يجالس رجلاً ليستفيد منه ولكن الرجل قلّ ما يقبل عليه بوجهه ويكلمه غالباً الا موجزاً ، فضقت صدرا حتى اضطررت على ان استخدم ترجماناً بيني وبينه لكي افهم المقصود من كثير من ابياته وذلك الترجمان هو شرح الواحدي ، فصاحب هذا الشرح كان بالغاً في معرفة الغريب **وخبيرا بمذاهب الشعراء** . ولعلك تقول ما الذي دعا ابا الطيب الى جعل شعره عالياً على ضعفاء الادباء والمتأدبين ، وما الذي حمله على الاغراب ، فاقول ان المتنبي اظن لكثرة ما حفظ الفاظ اللغة وخزن في ذاكرته من القصائد التي هي منازل لغريب

اللغة ... لم يعد يشعر انها غريبة على الناس او انه كان لا يلتفت الى حال من يقرأ ويسمع ولا يراعي اختلاف الطبقات من الفهم ... »
فالديباجة التي استعملتها في سرد وشرح ارائها فيها شيء من الولدنة ، اذا صح التعبير ، هـــذا الى فوق ما في هذه الاراء من المغالطات في جوهر الموضوع .

واظن ان القارىء لاحظ ان هذه المغالطـــات واضحة حتى ولو تبنينا نظريتها التي ارادت ان تدين المتنبي على ضوئها . فقولها مثلاً : « وذلك الترجمان هو شرح الواحدي ، فصاحب هذا الشرح كان بالغاً في معرفة الغريب و « خبيراً بمذاهب الشعراء » فهــل كان المتنبي الا شاعراً يدين بمذاهب الشعراء ؟ وهل ارادته الكاتبة رجلاً عادياً ؟اذن لكانت انتفت عنه صفة الشاعر ولما ظل موضوع درسها وتحليلها . وان ابقته في صفوف الشعراء ، وللشعراء مذاهبهم على حد قولهــا هي ذاتها ، فعلى اية اسس تحكم عليه اذن ؟

وهل تبغي الكاتبة ان يتخلى الشعراء عن فن التلاعب بالعبـارة وفن التوفيق بين الايماءة والتصريح ؟

وهل هناك احد ممن لهم ولو بعض الاطلاع على روائع العربيـة يجهل ما للمتنبي من هذه الروائع التي خلدته على مدى الاجيال ومنها ما سرت على السنة الناس انغاماً ستظل موسيقاها تسري في صفوفهم جيلاً بعد جيل ..

وتنتهي في هذا المقال ذاته الى القول :

« والخلاصة ان من صرف همته الى استعـمال المأنوس وتعمد ان يختار الاساليب المستلطفة كما فعل البهـــاء زهير ، كان كالمورد العذب ، فتقبل على شعره الخاصة والعامة . ومن استطـاع ان يجذب

اليه الناس ، فخليق به ان لا يبعده عنه ، ومن أراد ان يبث افكاره وينشر مقاصده فلا يناسبه الا الكلام السهل لانه جامع بين الصحة والسهولة ، فهو مفهوم عند العوام ومقبول عند الخواص . وان عدل الى التعقيد صرف الناس عنه . »

أظن إنها لو أطلقت مثل هذا الرأي في الكتاب لا في الشعراء، لكان في قولها شيء من الصحة ، ولا سيما لو كان هذا القول حول من يعنون من اولئك بالأمور السياسية والقضايا الاجتماعية العلمية . ولكنه لا ينطبق على الشعراء والادباء المبدعين .

ونعثر على مقال آخر ، عنوانه « فصل الخطاب في الرجل والمرأة » .

نرى في هذا العنوان ذاته ، قبل الخوض في مضمون المقال ، الى اي حد بلغ اعتداد هذه الصبية المطلة على الحياة بكل ما في الشباب من ثقة بالنفس وايمان بأن الحقيقة انما هي التي تكشفت لعقله دون سائر العقول . تقول الكاتبه :

« هذا الموضوع كان قد كتب فيه بعض المتأدبين في جرائد بيروت ايام لم تكن هذه القصيرة اليد قادرة على الدخول في مثله موضوعاً. وكثرت المحادثات فيه في الاجتماعات المنزلية على ما عرفت، وظهر للمرأة انصار يوجبون مساواتها للرجل ظناً انها في حالها المألوف لها من صدور الدهر منحطة قدراً عن الرجل وقد جرى أمامي محادثه بين سيدتين متعلمتين تمادتا فيها وانتهتا الى ان المرأة ينبغي ان يكون لها من الحقوق في مناصب الحكومة مثل ما للرجل . فمنذ ذلك اليوم جعلت افكر في هذه المسألة ، والتفت اثناء تفكيري فيها الى الحالة الإجتماعية التي جرت عليها المرأة من اوائل الدهر إلى يومنا هذا ،

فخطر لي ما أنا كاتبة وهو فيما أعتقد القول الفصل في المسألة المشار إليها » .

وتتبسط في سرد البديهيات في هذا الموضوع ، مقسمة مقالها الى ثلاثة اقسام : « ماذا اراد الخالق بالمرأة »، « عظمة العمل الذي اعدت له المرأة » ، « ما يجدر بالمرأة ان تباري الرجل فيه » ليت مضمون هذه الاقسام كان فيه التعمق الذي تلمح اليه هذه العناوين ...

تقول في « ماذا اراد الخالق بالمرأة » : فاذا التفتت اختي المرأة الى ما ذكرت ، رأت انها في مقام عال في الاجتماع الانساني ، بل رأت انها احد ركني الكون العظيمين ، واذا نظرت الى ذلك حق لي القول ان من العجب العجاب ما يقرأ من المقالات لبعض النساء اللواتي يطلبن اعمال الرجال كالقضاء مثلاً ، مع ان الطبيعة تشهد بغير لسان ان الصيغة التي صيغت عليها المرأة لم تعدها لمثل ما تطلب نساء البلاد الزاهرة الحضارة ، المستأثرة بحمل راية المعارف والصنائع دون سائر بلاد الله كلها جمعاء « لان الكاتبة ترى ان هذه البلاد تجهل الحقيقة التي عرفتها هي »

ثم ان في هذا القول جهلاً للاسس التي تقوم عليها المجتمعات البشرية من حيث سنة التطور المستمر ، اذ نراها تعتقد ان ما هو ظاهر في تكوين المجتمع انما هو جامد ابدي لا يتغير . وهنا تقفز الى الخاطر زينب فواز التي قالت في هذا الموضوع ما يدل على انها كانت تتحسس ان لم تكن تفهم بوعي عميق ، سنة التطور في تكوين المجتمع البشري . وكانت زينب فواز موضوع حديث سابق في هذه السلسلة

ولا يخرج القسم الثاني « عظمة العمل الذي اعدت له المرأة » عن هذا النمط من اللجوء الى البديهيات ، اذ تقول : « ذلك هو الغرض

الذي اراده الخالق بها صورها صورة يسهل الطريق الى ادراكه فهي مقضي عليها بالنظر الى جبلتهـــا ان تكون ملازمة بيتهـــا معتنية بشؤونه ... الخ ... »

اما ما يجدر بالمرأة ان تباري الرجل فيه ، هو القسم الثـــالث والاخير من مقالها « فهو الاعمال التي يصلح لها كيانه وكيانها من نحو الكتابة والشعر والتصوير والمناقشة ... ثم تقول :

« من شوائب هذا العصر ان جمهوراً اهله يتهـــالكون على الجديد ولو باطلا وينفرون من القديم ولو حقاً ، وهو انحطـــاط عقلي يزري باهل عصر يسمونه عصر العلم . (وهنا اقول ان هذا الرأي صحيح لو سلمت هي من المغالطة) وتضيف :

« فسبيل كل من اهل العصر ان يعرض على عقله مـــا يراه من الاقوال الجديدة ... فاذا رأى ان الصواب اتباع الجديد اتبعه ، والا بقي متمسكاً بالقديم وهو على علم ان الصواب البقاء عليه وان من الضلال اتباع الجديد الذي ولده الغرور »

ونعثر لها على قطعة حوارية جعلت ابطالها « الحـــارس » الذي شأته في خاطرها على ما اظن الدين الضابط لنزوات النـــاس في جهة ، والناس الذين اسمتهم « اهل العصر » في جهة ثانيـــة ، نقتطف منها بعض المقاطع :

« الحارس الامين – فيما اسأت اليكم اهل العصر حتى استوجبت بغضكم واحتقاركم ولماذا ارى فريقـــاً من كتابكم وخطبائكم يهجمون علي حتى يقلعوا حرمتي من قلوبكم ؟

« لا اعرف ان لي سيئة في حق احدكم واعـلم من نفسي اني باذل جهدي في المحافظة على حياتكم وصيتكم واموالكم . افهذا هو الذنب

الذي يدفعكم الى ان تصبوا الذم على رأسي ..

« ليت شعري هل فيكم من يريد ان تتناوله الالسنة بالغيبة ، ام هل فيكم من يريد ان يعيش بين قوم لا يعدون القتل حراماً ولا يرون الضرر بالصيت والمال إثما – لا اظن ان فيكم من يريد ذلك بل اعتقد ان كلامنكم يريد ان يكون في مأمن على حياته وصيته ومـــاله . وانا الكفيل له بذلك فلماذا اذا تكرهونني ؟

« هل اكرمني قوم ولم يذوقوا طعم السعادة ام هل يرعى حرمتي احد ولم يرع الناس حرمته ام هل عرف احد بالثقة بي ولم يجد الناس يثقون بقوله – لا شك انكم لا تنكرون اعتماد الناس على كل من عرف بموالاتي واشتهر بمحبتي . فان كنتم تفتخرون بالعلم وتؤدون لي مـــا استحق من التكريم فقد ضلّ عملكم واظلم نور ذكائكم واضطربت احوالكم فليس في الدنيـــا يغنى غنائي في المحافظة على هذه الاشياء الثلاثة التي هي اهم من كل مهم ، الحياة والصيت والمال »

يكاد نفسي ان يختنق قبل ان اصل الى نهاية السؤال !

اهل العصر – قل لنا من انت قد شوقتنا الى معرفة اسمـــك الكريم حيث اذ ذكرت ان كل سعادتنا من فضلك وراحة بالنا نعمة من نعمك .

الحارس – انا رونق الاجتماع . انا كفيل الاسلام . انا – القاضي العادل . انا الاب الحكيم الحنون انا منهل السعادة .

اهل العصر – قل لنا اسمك

الحارس – اسمي الدين .

اهل العصر – يا لها من صفات شريفة تحسن صاحبها وتجمله ولكن اين منك الدني بل اين الحراسة منك فلو كنت كما وصفت نفسك لكنت

تكون جاعلاً الحاملين اسمك كالاخوة . لكنت تكون قد استأصلت من بينهم القتل والسرقة وشهادة الزور ولكنت تظهر بلون لا بالوان والحال ان الناس المنتسبين اليك يأكل قويهم ضعيفهم ويغش عاقلهم غبيهم ولا يرد القادر منهم عن ايقاع الضرر بالضعيف الا سلطة قاهرة ...

الحارس – كلامكم حق من جهة ان الناس لا يقدرون ان يعيشوا مـا لم يسلطوا واحدهم عليهم وكذلك ان السجون ممتلئة باصحاب الجنايات · واما من جهة عجزي فلو اكرمتم وصاياي لا ستغنيتم عن مراجعة المحاكم ولكنكم احتقرتم اسمي ودستم وصيتي فوقعتم في هذه الاضطرابات كما قلت لكم .

اهل العصر – ما احتقرناك وشككنا فيك الا لما رأينا خدامك قد ازدروا بك وارادوا ان يتسلطوا علينا باسمك وهم لا يحفظون كلامك ويكرمونك فبينهم من العداوات والاختلافات على الدنيا بين الناس فكل الحق عليهم لا علينا .

الحارس – لقد اخجلتموني بذكرهم ولا اجد جواباً ارد بـه كلامكم فانا مثلكم غير راض عن كثير منهم ، فهم اهانوني ولكن فيهم كثيرون كرموا اسمي ورفعوا علمي كالدعـاة المنتشرين في الاطراف البعيدة والراهبات القائمات على تمريض المرضى وكالكهنة الذين اخرجوا قلوبهم من الدنيا وكالرؤساء الذين تثبت افعالهم تجردهم لخدمة الرعايا وكالذين اسسوا المدارس والفوا الكتب للتعليم والتهذيب وكالذين وقفوا الاملاك الكثيرة الريع على الفقراء فبهولاً اقتدوا وبهؤلاء تمثلوا فهم قد اتموا واجباتهم ورفعوا بيرقي وحينئذ تعرفون منافعي وتكفون اضطهادي .

«فيا ايها الكتاب والخطباء والمستخفون بي من سوء تصرف بعض المنتسبين الي انظروا في سيرة الامناء من اتباعي وما هم القليل حتى في هذا العصر .

الكتاب والخطباء – عذرا ايها الحارس الامين ابى الله ان نجرد للطعن فيك يراعا او نطلق لساناً كنا متى رأينا احد خدامك قد خانك وداس اوامرك فحينئذ ننهض عليه انتصاراً وتنزيها لشأنك وجلالاً لمقامك فانك نقي لا تحتمل الدنس وامين لا ترضى الخيانة .

« كما اننا نعطر الافاق بالثناء على اصفيائك من الرؤساء المقبلين على القيام باعباء مقاماتهم المعلمين للناس السيرة الحسنة بافعالهم الصالحة طريقتهم الحميدة .

الحارس – الان قد اطمأن بالي ووثقت ان الكتاب والخطباء يعرفون ان رجال الدين ليسوا ارواحاً بلا اشباح بل هم بشراً ولا بد ان يوجد فيهم من تغويه الدنيا فيحيد عن سبيله فهنا تستعمل الفطنة في تنبيهه وكتم امره ما دعت المصلحة العامة الى كتمه . »

وينتهي الحوار على هذا النحو الخالي من فن الاخراج والمليء بالسذاجات ، على ما فيه من التماعات ارادة خيرة وتوق الى احلال القيم الصحيحة بين الناس .

انها التماعات نفس طبعت على الخير والنبل لا شك في ذلك .

وان اراءها وبنات فكرها كانت وليدة تفتح عقلي بديهي على ما فيه ايضاً من تطلعات والتفاتات لا بأس بها من حيث خطورة المواضيع التي كانت تهف خاطر هذه الصبية الظريفة التي لو قدر لها ان تعيش لكانت اتحفت الادب النسائي بما هو جدير بان يستوقف .



عفيفة شرتوني

عفيفة شرتوني

١٨٨٦ - ١٩٠٦

هي ثانية الكاتبتين الشقيقتين انيسة وعفيفة شرتوني ، الصبيتين اللتين اختطفهما الموت وهما بعد في بدء اطلالتهما المشرئبة على دنيـــا الفكر والادب ، فحبس في ظلمات القبر ومضات لواتيح لضيائهـــا ان يلمع في اجواء الفكر لاضاف الى نتاجنـــا النسائي شيئاً حلواً من براءة العاطفة ونبل الغاية في وجود الانسان فيـــا لغصة القلب على الشباب الذاوي .

فالصبيتان انيسة وعفيفة شرتوني ، على افتقار النتاج الضئيل الى الروعة والموهبة ، هذه الموهبة التي هي في طبيعة الكاتب ، الا انهـا تكتسب في الممارسة براعة ، ان هاتين الصبيتين كانتا مهيئتين لان تصبحا من رائدات الفكر النسوي لو اتيح لهما البقاء الطويل .

اما وقد ماتتا صبيتين انيسة ، كما قلنا في الحديث السابق في سن الثلاث والعشرين وعفيفة في العشرين ، فان مـــا تركتاه من نتاج لا يشكل في الحقيقة شيئاً يستوقف ، وما ذكرهما في صدد التحدث عن اديبات لبنانيات الا من قبيل تسجيل خواطر كل من ساهمت فـــيما شئنا ان نسميه الادب النسائي .

ومن ضمن هذا المخطط يفرض علي الموضوع ايضاً ان اشير اشارة سريعة خاطفة الى سيرة كل اديبة تدخل في باب هذا البحث .

ولدت عفيفة في ٢٥ مارس ١٨٨٦ ، وتعلمت في مدرسة الراهبات الناصريات ثم في مدرسة عينطورة لراهبات الزيارة ، كما اشرنا في حديثنا عن انيسة ، ودخلت مدرسة التقدم التي انشأهـا في بيروت المطران يوسف الدبس .

تزوجت الشاب نصري موسى من بكفيـــا وسافرت واياه الى البرازيل وعرجا في طريقهما اليها على البلاد المصرية ومن ثم على البلاد الفرنسية حيث اقاما شهرين .

ولما وصلا الى البرازيل كان بدء فصل الحر فيهـــا اذ وصلا في حزيران . ولم يدن فصل الخريف حتى كانت عفيفة قد فقدت الكثير من عافيتها وقواها تحت وطأة الحر الشديد ، وراح داء خبيث ينخر جسمها النحيل فقضت بعد شهور كانت خلالها العليلة الجميلة الحبيبة على قلب كل من رأى شبابها الحلو يتلاشى تحت وطأة الداء ، وكان موتها في شباط ١٩٠٦ .

نعثر في مقالاتها على ما عثرنا عليه في مقالات انيسة من « خواطر عادية ، تهف في ذهن كل انسان ساعة يعي نفسه ويبدأ العمليـــة العقلية ، وبكلمة اوضح ، على مجموعة بديهيات . »

فمن مقالاتها تلك مقـــال عنوانه « قرءاة الصحف » قسمته الى قسمين « كيفية مطالعة الصحف » ، ومما يضرّ نشره » واخر عنوانه «طرق السفر وكتب المطالعـــة» وثالث عنوانه « نفوس الشعراء » و « فكر ابي العلاء » ومـــنزلة ابي العلاء ومنزلة الشعراء عند القوة العاقلة » ، و « مجلس النساء » .

في بعض هذه العناوين إلماحة الى شؤون هامة في مجـــال الفكر ، الا ان سياق البحث يدل على ان الكاتبة لم تتوخى او على الاصح لم

تتحسس النواحي الجديّة من هذه المواضيع .

فلا يتمالك القارىء من ان يبتسم ويهز رأسه لكثرة ما يرد في مقالها « قراءة الصحف » من بديهيات .

فلو ان الكاتبة اضاعت ما اضاعته من وقتها ووقت القارىء لتبحث في قراءة الكتب العلمية ، او الروائع الادبية لكنت فهمت اهتمامها في الموضوع وتحليلاتها له . اما ان يخيل اليها ان قراءة الصحف عمل تثقيفي عظيم فتقول :

« ان من اراد ان يستفيد من مطالعة الصحف ولا يلحقه اذى من بعض منشوراتها فلا بد من اربعة امور :

اولاً : - « ان يقرأ كل ما فيها ولا يدع مطلبات من مطالبها ولا خبراً من اخبارها ولو من اخبار قدوم رجل من العوام او سفره ممن لا يتوقف على معرفة قدومه او سفره امر من الامور ... الخ» (حقاً انه لم يكن للوقت لديها من ثمن) .

ثانياً « - ان يتتبع المطالب عدداً فعددا حتى يكون عارفاً في كل مسألة كمن يصير من منبع النهر الى مصبه ...»

ثالثاً « - ان يستدعي انتباهه ويستنجد عقله حتى لا يذهب عليه شيء مما لا صحة له وكي لا يستحسن ما لا وجه لاستحسانه ، فان اكثر اصحاب الجرائد العربية انما يؤثرون ، ما عدا الاخبار المحلية ، عن جرائد اوروبا ، وهذه قد تذكر اموراً يحسن هناك ذكرها ويفيد ، ويقبح نشرها هنا ويضرّ ...»

كأني بالكاتبة في هذا المقطع تنعي على الصحف ان تستمد بعض مادتها من الخارج . افلا يكفي بلية ان تكون قراءة الصحف هي مصدر تثقيف العقل ، على رأيها ، حتى نزيدها بلاء فنغلقها على مصادر

الفكر الاوروبية ؟

اما الرابع فلا يخرج عما ورد في الاول والثاني من بديهيات ساذجة كقولها :

« ان يعذر الجرائد اذا نوهت ، ببعض الناس تنويهاً عالياً، وغالت في مدحهم ، واني لكثرة ما قرأت وسمعت في الانتقاد من هذه الجهة ، اعملت الفكر في ذلك ، (جهد عظيم حقاً ، لامر خطير) فتبين لي وجه للعذر وجيه وهو ان الجرائد انما تحيا بمال المشتركين ... » وجيه هذا العذر ..

وتستمر في بحثها هذا فتقول في باب « مما يضر نشره » :

« فان كانت ذات غيرة على مصلحة العباد ومحبة لعمران البلاد ، فسبيلها ان تنتقد اعمال من يشذ عن مقتضيات منصبه وتذكر ذلك بعبارة خالية مما يحقره ويشوه اسمه ... »

« بديهيات ... بديهيات ... ثم بديهيات ...

ترى لماذا تترك مثل هذه الاقوال في كتب قد يرجع اليها بعض المستشرقين على كونها من المراجع التي تصح لدراسة النتاج النسائي عندنا ... ولا ننسى ان الكتاب الذي وردت فيه يبحث في « بلاغة النساء في القرن العشرين ... » فهل اغالي اذا قلت انه قد يصح سحب مثل هذه الكتب من التداول لاعادة النظر فيها ، حتى اذا كان لا بد من تدوين شيء من نتاج كل واحدة كتبت في هذا البلد ، يصار الي اختيار هذا الشيء مما يمكن ان يدلل على رأي او وجهة نظر ، او على روعة في الاسلوب وموهبة في الاداء .

اما ان نبقى على مثل هذه السخافات والبديهيات وندفعها في كتب

او دراسات، بعناوين كالتي استعملت السيدة فتحية محمد «بلاغة النساء في القرن العشرين» فأمر يسيء كل الاساءة الى سمعتنا، ويعطي عنا رأياً لا نفتخر به عند الاعراب والاجانب .

فلو اكتفينا بتدوين المقطع التالي من مقال حول شؤون القراءة بعد مقدمة وجيزة ، وهو مقطع وضعت له العنوان الطريف « طرق السفر وكتب المطالعة » قالت :

« ان طرق السفر قد تكون مخيفة ذات مخاطر . اما من قبل قطاع الطرق واللصوص ، واما من الوحوش الضارية ، فلا غنى لمن يضطر الى السير فيها ان يتخذ عدة ويستصحب رفاقاً اتقاء لما ربما يعترضه من المخاطر . كذلك الكتب التي يندفع الى قراءتها قد تكون مكامن للصوص الاخلاق الحميدة الخ ... »

اني ارى ان هذا التشبيه طريف وظريف ، ويعبر عن رأي ووجهة نظر صحيحين ، اذ ما اكثر ما تفعل المطالعة في نفس القاريء من تهديم لقيم وتشويه لحقائق ، فتدفع به ، اذا كان غبياً ، الى الانزلاق في مهاوي المبازل بصورة لا شعورية لا واعية تماماً كما يثب اللص وقاطع الطريق امام المسافرين على حين غفلة منهم . ومن هنا كان تشبيه الكاتبة طريف ، فلو اكتفينا بتدوين هذا المقطع لاعطينا عن الكاتبة فكرة طيبة من حيث التخيل ومن حيث المحتوى الجيد الصحيح .

واخيراً نقع على مقال بعنوان « نفوس الشعراء » تمتدح فيه ابا العلاء واخلاقه ونظرته الى الحياة ، فتضعه في منزلة الملك من الرعية بالنسبة الى سواه من الشعراء . وقد اعجبني في هذا المقال مقطع تنوه فيه بضرورة فهم الاجواء التي عاش فيها الشعراء ومعرفة مجتمعهم

لنفهم اقوالهم وكتاباتهم ، وان هي لم تتحسس هذه الحقيقة بوضوح. لانها لم تدرك مثلاً زهد ابي العلاء وترفعه عن « مـلاذ الابدان وعن الائتمار باوامر الطمع والاهواء ، وعن الانشغال بما يلذ الحواس الخ ... »انما يعودالى العاهة المؤلمة الموجعة التي ابتلى بها ابو العلاء وهي العمى .

وتقول في مجال التحدث عن « فكر ابو العلاء » :

« لم يكن ابو العلاء من حيث الفكر سوقة ولا رعية بل كان ملكاً فهو من اعاظم ملوك الافكار ومن اكابر قواد العقول ، واما غيره ممن اطلعت على شعرهم فمعظمهم رعايا افكار من درجواواصحاب معان متداولة . ولو اتفق لاحدهم اسلوب جديد في معنى مطروق ولم يكن قد عثر عليه فيما طالع او سمع بادر الى دعوة الابتكار كانه قد فتح مملكة عظيمة وربما لو استقرى ما تقدمه من الاشعار لظهر انه مسبوق اليه لا حق له الا ان يعد من توارد الخواطر .

« على انك لو اخذت الابواب التي نظم فيها الشعراء قاطبة ونظرت الى اصول المعاني لا ستطعت ان ترد الدواوين ديواناً فانهم لا يختلفون الا في صور التعابير وابواب الدخول على المعنى . فيكون ذلك الديوان عصارة افكارهم وخلاصة مانبتت قرائحهم . واما ابو العلاء فمع انه قد نظم كثيراً من المعاني المتداولة لكنه جاء بمبتكرات متعددة فبحق القبه بقائد الافكار فلقد نهج سلالم لم تنهج من قبل . «مررت بخمسة وعشرين ديواناً غير ديوانه ولا ضائع لي فيها الا الغرض الذي ذكرت فان كان قد سبق الى ذلك فامر لم اطلع عليه »

ان في هذا المقطع لهجة جدّ وتعمق ليت الكاتبة نهجت فيه النهج العلمي الصحيح لنتأكد من انها بنت رأيها واستخلصت حكمها

من مقارنات وتحليلات ادت بها الى النتيجة التي وصلت اليها ، اي ليتها عرضت علينـــا تلك المقارنات بوضع اقوال الشعراء الخمس والعشرين الذين مرت بهم ودلتنا على مواضع التكرار عند بعضهـــم ومواضع التجديد عند ابي العلاء ، اذن لاتى درسهـا قيماً مستنداً الى نصوص واستشهادات . على اني اكبر فيهـــا ، وهي الشابة التي لم تتجاوز العشرين ربيعاً هذه الرغبة في الاقبال على مواضيع من الجدية والتعمق اللذين تدل عليهما عناوين مقاطع المقال او على الاصح الدرس ، بمكان وهذا ما يدفعني للتعبير عن اعجابي بها ، اعجاباً صادقاً.

« وفي منزلة ابي العلاء ومنزلة الشعراء» (عند القوة العاقلة)
تقول :

« لو كان لمصور ان يصور العقـــل متصوراً في مجلسه والشعراء يقبلون عليه بقصائدهم التي سبحوا بها لربات الحسن والجمـــال ، او جعلوها حانات لاهل الشراب ومجامع للمغنين لرثى لهم ولبكي لسوء مصيرهم واراهم انهم تركوا ملاذ النفس الشريفة الدائمـــة الى ملاذ الجسد الدنيئة الزائلة ولكان ينهيء ابا العلاء و يقربه ويجل قـــدره ويكرم وفادته . ذلك اولا انه لم يرض لنفسه ان ينغمس فيما انغمسوا فيه كيف لا وهو الفاعل بما قال :

ومن يطهـر بخوف الله مهجتـه
فذاك انسان قوم يشبه الملكا

« وثانياً انه استعان ببيانه ووقف اشعة ذهنه على ارشاد الافكار ودعاء الناس الى الخير فهو المتبع وصيته الصريحة في قوله :

عليك بفعل الخـير لو لم يكن له
من الفضل الا حسنه في المسامـع

خلافاً لمن قال فيهم :

لقد جاء قوم يدعون فضيلة وكلهم يبغي لمهجته نفعا

« ولعلك تقول لي ان بعض الشعراء قد نظموا في الحكم والنصائح والتوبة والزهد كابن الوردي والمتنبي وابي العتاهية والحريري فلم لم تنظميهم في سلك ابي العلاء ولم هذا الكلف بهذا الضرير ، فقلت اما كلفي بهذا الضرير البصر الصحيح البصيرة فلا نصرة قرابة او معرفة او التماس منفعة فبيني وبينه ما يزيد على ثمانماية سنة . فانا اعرف اسمه واقواله وهو لا يعرف من امري شيئاً . ولا سبيل لي فاقول عنه كما قال عن نفسه في قول المتنبي :

انا الذي نظر الاعمى الى ادبي

واسمعت كلماتي من به صمم

« واما انني لم انظمهم وامثالهم في سلكه فلان اولئك من السكارى بخمرة الملاذ الجسدية ومن اسارى المطامع البشرية ، لكنما عرضت لهم صحوات فابصروا طريق الهدى ... »

وفي مقطع عنوانه « مجلس النساء »

تقول :

« ليس علينا نحن النساء نكير ان يدور الحديث في مجالسنا على انواع الحلى من خواتم واسورة وحلق او على ما درج من الازياء وما بطل كما لاحرج علينا في الكلام في اثاث البيوت ومفروشاتها او في الخطبة والجهاز فان هذه الاشياء مما يوافق حالتنا ، كما لاحرج على الرهبان ان يتذاكروا قصص الزهاد والنساك واهل التقى والصلاح كما لا حرج على الشعراء ان يحفظوا اشعار السلف من المشاهير بل ان روايتها تعد من ثروتهم الادبية ولا على العلماء ان يفاخروا بكثرة

الاطلاع وتطلب الكتب النادرة الوجود وذلك جرياً على القاعدة الطبيعية من ان كل احد يهتم بما يخصه ويليق به .

« لكننا نحن النساء انفسنا نمتعض من المفاخرات بما يجلب لهن فخرا بل ربما يجر عليهن امتهانا فمن هؤلاء المتكبرات الغبيات الرقيقات القليلات المال من تفتخر بانها لا تخيط الا عند الخياطة فلانة (فتقول هذه اجرتها غالية تأخذ على الفسطان ليرتين . »

« ومنهن من تتفنن في اساليب الافتخار بما لا فخر فيه كاحاديث التنزه والسهرات والمقامرات والرقص مع الرجال فنظائر هؤلاء الضعيفات النفوس يحسبن كل ذلك من المميزات المجيدة الشريفة ولكن ما الحيلة وطبائع الخلق شتى فيها كل غريب وعجيب .

« على ان سيدات العصر وفتياته المتعلمات في المدارس المتعودات مطالعة الجرائد والمجلات يجدن مواد كثيرة لكلام يفكه ويفيد ويحيي الهمم ويحث على المروءة والسخاء والاقدام ... الخ »

انها بعض الامثلة عن نتاج هذة الكاتبة التي غابت عن الوجود مع شقيقتها وهي بعد في ريعان الصبا والفتوة والجمال فنكب الشباب بها والتاعت القلوب على نضارتها ، اجل لقد غابت عن الوجود قبل ان ينضج فكرها وتتسع مداركها ، فتسكب ما تحسسته من معقدات مجتمعها وقضاياه بقالب واضح مفيد وابقى على الدهر ، ليتها ، مع شقيقتها انيسة عاشت طويلاً اذن لكانتا اتحفتا الادب بثمرات طيبة لاسيا وانها نشأتا في بيت يحب الادب ويمارسه .



مي زياده

مي زياده

١٨٨٦ - ١٩٤١

في الخاطر، في الحس،في خلجات القلوب ، في ارتعاشات النفوس، في الاغوار من انسانيـــة الانسان تتراقص اطياف ايزيس كوبيا Isis Copia [١] في اشعارها ومتاهاتها، ومي في اضطراباتها وتساؤلاتها وقلقها ، وتوقها المشرئب الى مرامي بعيدة ، لا تُدانى ولا تلامس .

مي التي ما ان وعت نفسها حتى امضتها تساؤلات ملحة مرهقة لا تفارق خاطرها :

من نحن ؟ ما معنى الوجود ؟ لماذا نأتي الى هذه الدنيـــا ؟ ما هو مصيرنا ؟

ما هو سياق الحياة ؟

الى أين ننتهي ؟

« انما حياة الانسان على الارض جهـــاد مستمر رغم كونها محض، عبور ، ورغم اننا نموت ، في ذاتنا ، كل يوم .

« اتبعني يا هذا،افصل وردة مبللة بندى الليل عن غصنها الريان ؟

« حذار فالاشواك تعترضك فتمزق منك اليد والأنامل .

« بين الناس كفاح وعراك ، رغم ذلك فان الحي لا يحيا لنفسه ، بل لغيره نتاج جهاده ومسعاه . وهل يتيسر النصر للفرد الواحد في

(١) التوقيع المستعار لمي في باكورة انتاجها (ازاهير الاحلام) وضعته بالفرنسية

حين تتحد عليه جميع القوى ، وتتألب لقهره والفتك به ؟ بدهي انه بين هذه الموانع والحواجز لا يظفر باكثر من وريقة تنثرها الريح عن زهرتهـــا ، وانه من الثمرة التي يضرسها ويغذيها بالجهود والاحتمال والتضحية ، لا يجني غير التمني والتشوق والانتظار .

« عندما تمر بك يا هذا ، لحظة سعادة وهناء ، الا تراها تتعجل التفلت والانصراف ؟ وانك لتستنفد مجهودك عبثاً في التشبث بها في رحبة الزمان : لا ايامك شبيهة بالليل الجارف ، والموج منه يستحث الموج السابق » .

آه ليت مي الحبيبة ، مي القريبة من نفس كل انسان حتى لتكاد ان تكون اياها ، بخلجاتها ، بلواعجها ، بتطلعاتها الملتاعة الى حيث لا قرار ولا استقرار ، ليت هذه الروح الغنية بالعاطفة الانسانيـــة الحية ، ليتها ما انطوت على فرديتها ولا انكفأت على ذاتها فما عاشت في هذا الاغتراب القتال وهذه الوحشة المضنية !

ليتها اعطت مواهبهـــا النادرة ، وانطلقت من تحسسها المرهف لكل خلجة من خلجات الذات الانسانية ، في مجال العمل من اجل مجتمعها ، من اجل وطنها ، فعملت مع العاملين من اجل قضية ، مجاهدة في سبيل غايات جماعية لا مجال لها للتفرغ الى مثل هـــذه المتاهات ، اذن لما كانت وعت هذا الاغتراب ولما امضتها تساؤلات ليس لها من جواب .

بلى انها كانت وجدت الجواب الشافي ، الجواب الذي يحرك رغبة العطاء بسخاء ، لأن هذا العطاء ما كان ليذهب سدى ، بل انه كان في سبيل استمرار الوجود في مجموعة الامة ثم في المجموعة الانسانية . وكانت أحست بغبطة الوجود لأنها تعرفت على غبطة العطاء في سبيل

هذا الاستمرار . ليتها فعلت ما دامت لم تظفر بذلك العطاء الآخر في سبيل الاستمرار ، في سبيل انشاء الاسرة .

في يوميات « عائدة » وهو اسم آخر مستعار لمي ، تقول :

« وهكـــذا انتقلت من تأمل الى تأمل حتى انتهيت الى فكرة الموت .

« كم ذا سمعت ان هذه الفكرة كانت تعزية القديسين ورجاء لهم ! فما كنت احاول ان افهم بل كنت انصرف عن ذلك بسرعة لاطمئن واستريح . غير اني اليوم انتشرت في نفسي فكرة الموت مع لذة الشعور بها ، انتشار الالحان من الارغن العازف » .

أي كتاب من مؤلفاتها ، في أية صفحة من الصفحات التي اودعتها لواعج نفسها ، كيفما قلبناها نعثر على مثل هذه المقاطع وفيها الوحشة وفيها الاغتراب :

« نحن الآن في منتصف الساعة الحادية عشر صباحاً . وانا وحدي في الغابة منذ ساعتين ، مع بيرون شاعر العنف والعذوبة الذي يضعه الانكليز في المرتبة الرابعة من شعرائهم ، مع انه يستحق ان يكون الاول بعد شكسبير .

« بينما كنت أقرأ دفتري على مقربة مني ، والان وقد نشأت اكتب فان « شيلد هرلد » ملقى عند قدمي » .

« أكان بيرون يدري ، أكان يهمه ان يدري ، ان فتاة لبنانية ستقضي معه ، او ما تبقى منه ، ساعات الوحدة الطويلة في غابات لبنان الجميلة .

. . .

« يا هذه البرية ، يا هذا الخلاء في لبنان !

« اني لالقي على كل صخر من صخورك تحت كل شجـــرة من اشجارك ، في كل مذهب من مذاهب اوديتك ، نثرات من كياني : انثر الابتسامات والزفرات ، والاحلام ، والاغاني ، والامـــال ، والاعجاب والتأمل »

ولكن تلوح من بين الاسطر التالية بارقة امـــل بشفاء مي من سوداويتها واغترابها . اذ تتحسس ، بعمق ، حبها للبنان وطنهـــا . فانتبه ايها القارىء الى ما تقول ، وانظر كيف ان « ميّتنا الحبيبة ،» « ميّتناً » العبقرية الموهوبة احست انها باقية مثل لبنانها حين قالت :

« يلوح لي احياناً اني طرحت عليك وكل ما في حولي كل ما في وسعي ، واني القيت اليك نهاية منتهى اقتداري .

« ولكنني كلما احببتك زدت نموا واقتدارا .

« كلما دفقت عليك ، يا قمم جبالي ، عواطفي وذهولي تجدد فيَّ الحب وذلك الحماسة ، فاذا بي مثلك باقية .

« احبك وسأحبك الى الدوام »

فميّ ، هذه العبقرية الفذة والكاتبة البارعة التي ولدت معها ملكة الكتابة وفي مطاوي نفسها موهبة التعبير عن خفايا هذه المطــاوي ، مي هذه كانت مفخرة النساء في العـــالم العربي كله وابرز وجه من الوجوه النسائية التي يتناولهـــا هذا الدرس . لقـد كانت شمساً شعت ضياؤهـــا في هذا القسم العربي من الشرق كما كان لبعض العواصم الغربية بعض النصيب من هذا الاشعاع .

ان اسرة مي زياده اصلها من بشراي ، بلدة جبران خليل جبران هذا العبقري الاخر الذي تفاخر به العربية في العالم الجديد . وستنشأ بين العبقريين عاطفة مودة عميقة يعبران عنهـــا برسائل تعد اليوم من

ثروات اللغة العربية .

لقد رأت فيه مي النجي الذي كانت له ميزة شجعتها على ان تخط على الورق ، دون وجل ولا تحفظ ، كل ما يجيش في نفسها من لواعج وخواطر فلا تخشى تهكم نظراته الساخرة : اقد كانت تفصلهما الابعاد فلا مجال للتردد .

ولقد كتب على هذين العبقريين ان لا يلتقيا مدى الحياة . كانت تعيش في القاهرة وكان يقيم في الولايات المتحدة ، وماتا قبل ان يتعارفا شخصياً بعد ان تعارفت روحاهما .

ولدت مي زياده في الناصرة في ١١ شباط من سنة ١٨٨٦ حيث كان والدها يتولى مهنة التعليم وتوفيت عزباء عن ٥٥ عاماً في القاهرة في ١٩ تشرين الاول سنة ١٩٤١ .

اما صالونها في القاهرة فكان على سوية الصالونات الادبية المشهورة التي كانت تشرف عليها امثال مدام ده ستال ، والمركيزة ده سيفينيه ونينون ده لانكلو وسواهن من شهيرات النساء والمفكرات . ولم تكن هنالك من شخصية بارزة من سياسيين او شعراء او كتاب ، سواء اكانوا في القاهرة او ممن يؤمونها الا وكانت تحج الى ذلك الصالون الذي امتد اشعاعه الى الاقطار العربية جميعها . فكانت محط انظار هذه الاقطار وصادفت من الاعجاب والتقدير والاطراء ما لم تصادفه امرأة سواها .

كان ابواها يبذلان كل ما لديهما من طاقات - وكانا اصبحا ميسورين بعد عسر - لارضاء مي واطلاقها في ميادين الحياة على ما تشتهي وتتمنى ، فكانت تزور الحواضر الاوروبية ،وتكثر من زيارة لبنان الذي « احبته الى الدوام » فعاشت في حلم من السعادة وفي سياق

متصاعد الى ان وصلت الى الاوج .

وفي هذا السياق المتصاعد ، وفي غمرة هذه السعادة والايام المشرقة تحيط بها في كل آن ، لم تنتبه مي الى الايام تطوي الايام والى غبار السنين يحط على نضارة الوجنتين فتبهت وراءه ، ولا الى السأم من ايام رتيبة ، على اشراقها ، « ينوص » معه بريق عينين ساحرتين ما رآهما انسان الا وشاعت في نفسه جاذبية تكاد لا تقاوم فيرى نفسه مسوقاً ، في الموعد الاسبوعي ، الى صالون الساحرة .

في هذا كله لم تنتبه مي الى السنين تمضي .

وفجأة تفقد اباها وامها ، عمادى بيتها وجناحي الحنان اللذين استظلت دفئيهما . فتلتاع وتحس بالوحشة والاغتراب القاتلين وتلتفت الى المرآة فتطالعها مسنة لا شيء فيها يذكّر بتلك الصبية المتألقة .

فبدأت الألهة المعبودة بالانحدار وبتحسس وحدتها ، وفتشت حولها فما رأت اصدقاء ولا معجبين ! بلى رأت اوفياء مشفقين .

اشفاق على الاهة عبدت !

يا للالتياع والتفجع !

الى جبران ستكتب وتبثه التياعها ووحشتها ...

الجواب يبطىء !

انتظار ، فانتظار ! وساعات ممضة بين الامل واليأس ، بين الوحشة والاستئناس .

انتظار ! انتظار ! يطول ويمتد في صقيع الفراغ والوحشة ...

ورد الجواب اخيراً

لقد حملته اسلاك البرق

جبران ذهب !

لم يعد حي في الابعاد ...
فرغ العالم كله من كل أليف ..
اي حال هو حال الألاهة الهاوية؟
انه الذهول والصمت ...
انه التشبص في الماضي الحبيب
كل ما هو الان وما هو المستقبل لم يعد يعني مي .

سيظل الجميع يذكر بألم وغصص ، ستظل المحافل الادبية تتذكر تلك الايام والوجوم يخيم عليها ، الايام التي امضتها مي في العصفورية .

وها كم مقطع من رسالة بعثها امين الريحاني الى مي يوم كانت تجتاز محنتها تلك قال :

« احييك تحية قلبية حارة وادعو لك بالخير الجزيل الصافي على الدوام .

« قرأت اليوم في الجرائد خبر الدعوى المشؤومة وتطورها فتأثرت ، حزنت ، تألمت . أأبطاء ومماطلة ، ثم عودة الى الاطباء . اني اخشى عليك من هذه المماطلات وهذه العودات ، فارجوك ان تسمعي لي ولا تتجهمي ولا تغضبي .

« انك في اشراك اناس لا يريدون لك الخير ، وانك لتعلمين هذا كل العلم . ولكنك لا تعلمين كل العلم سر الخلاص . فهل تتمنين الخلاص كما يتمناه لك اصدقاؤك ومحبوك ، اذن اسمعي لهذا الصديق القديم منهم ..

« استقبلي لجنة الاطباء بتلك الروح الرحبة السامية التي هي روحك ، رحبي بهم ، وابسمي لهم ، وحديثهم بما يشاؤون من الاحاديث – انصبي لهم اشراك عبقريتك »

وسأظل انا نفسي اذكر مــــا حييت تلك السانحات الرهيبة التي امضيتها في قاعة الوست هول في الجامعة الاميركية ، في ٢٢ اذار سنة ١٩٣٨ يوم القت مي محاضرتها « رسالة الاديب الى الحيــــاة العربية » وكيف حبستُ انفاسي ساعة وصلت مي الى مقطع وصمتت لحظة، لحظتين ، ثلاث : خمس لحظات ، لحظات ! انها ما تزال صــامتة ، انها صامتة ، انها صامتة ، لا تتكلم ، لا تنظر الى الورقات امــامها ، انها تنظر الى البعيد ، الى لاشيء ... انها في ذهول ..

رباه ! ماذا !

اعاودتها الغيبوبة فرجعت الى الماضي ، الى المــــاضي وحده ولا شيء سواه .

اعاودتها ؟

رباه اني اكاد اموت .. ساختنق ...

لن انظر اليها .

رأسي الى الارض ...

صمت ، ... صمت ! القاعة كلها لا تتنفس ...

ماذا ؟

صوتها . !

رفعت رأسي .

انها عادت

انها تستأنف

هادئة « طبيعية » تكمل .

. . .

امين الريحاني وفيلكس فارس يقنعانها

ستذهب الى الفريكة .. ستمضى عند امين اويقات هادئة ، فيها من صفاء الذهن المستسلم للواقع وان كان موجعا .

لنعد الى ادبهـــا وسيرتها .

كان اول نتاجها مجموعة قطع شعرية الفتهـــا بالفرنسية بعنوان « ازاهير حلم » تحت توقيـــع مستعار « ايزيس كوبيا » وقد ترجم هذه المجموعة الدكتور جميل جبر .

اما حكاية هذا الاسم المستعار فلا تخلو من الطرافة .

فمي التي كانت تحسن اللغات الفرنسية والانكليزية والالمانيـــة واليونانية والروسية شاءت ان يكون لهـــا اسم في التأليف يحدث اثراً .

ففتشت في كتب الميتولوجيا عن الاسماء التي كانت تحملهـــا الالاهات التي كانت محبوبة . فايزيس زوجة ايزيريس كانت تمثـــل العذراء مريم ، وكلمة مي هي تصغير ماري اسم الكاتبة الحقيقي ، ففرحت للاكتشاف وقررت ان يكون اسمها الاول ايزيس . امـــا كوبيا فيعني في اليونانية « زيادة » اي الفائض . فوجدت مي انهـــا وفقت الى وجود اسمها واسم اسرتها فاستعملته وتشجعت على مواجهة جمهور القراء باسم مستعار وهو اسم احدث اثراً كـــما كانت تتوقع .

اما كتابها « باحثة البادية » وهو سيرة الكاتبة ملك حفني ناصر ، فكان دراسة قيمة عن احوال المرأة في العالم العربي ، وقد شجعهـــا على الكتابة بالعربية صديقها لطفي السيد .

وفي باب الخواطر ، فلها عدة مؤلفات منها :

« رجوع الموجة » و « بين المد والجزر » و « سوانح فتـــاة » « ظلمات واشعة » « كلمات واشارات » و رواية عنوانهـــا « الحب

العذرى» ودرس في « اللغة والادب والصحافة » :

ولها كتاب عنوانه « المساواة » وهو في رأيي الكتاب الاساسي في انتاجها ، حاولت فيه الكاتبة ان تعالج موضوعاً جدياً تخرج منه بحلول وآراء حول كيفية تنظيم الحياة لتطبق « المساواة » تطبيقاً حقيقياً . ولعل الاحري ان يقال انه مجموعة مقالات تبحث موضوعاً واحداً خلال مناظير متعددة متلونة . ولمي فضل في هذه المجموعة التي كتبتها في ابان نشاطها الادبي .

ولا اقصد ان انوه بفضل اديبتنا الراحلة في هذا الكتاب واقول ان كل ما جاء فيه اوافق عليه او هو صحيح من وجهة النظر العلمية . بل اعني ان اديبتنا الكبيرة قد حاولت ان تعالج موضوعاً بل مواضيع جدية قل ان الفناها في ادبنا النسائي الذي يشكو الميوعة العاطفية او سطحية التفكير نظراً للحياة الهامشية التي ما انفكت تعيشها المرأة العربية في العالم العربي بمعزل او شبه معزل عن المعمعة مثقلة بعبء العمل او مأخوذة بالنتائج .

قلت ان اديبتنا الراحلة تتولى في هذا الكتاب بحث موضوع المساواة من خلال مناظير متعددة متلونة في مراحل التاريخ القديمة والحديثة .

لكن النتيجة التي تنتهي اليها من هذه المقالات في المساواة ليست واضحة . وهي نفسها تعترف بذلك حين تقول بلسانها في الرواية الحوارية الخيالية التي جعلتها في كتابها قبل رسالة عارف « اذا بالموضوع يعالجني قاذفاً بي من تيار الى تيار و من حيرة الى حيرة ، وها انذا اردد سؤالا القيته على نفسي مراراً خلال هذا البحث ، اين انا الان ؟ اين انا »

وفي نفس الوقت يلوح في ثنايا المقالات كلها ان اديبتنا الراحلة مزعزعة الايمان اصلاً بالمساواة . فكتابها كله تسوده رنة حذروارتياب وتشأوم . لنسمعها تقول :

« يا للمطامع والامال المتشابهة في قلب الانسان . عند كل انقلاب وكل تحول يأتينا النظريون بالاصلاحات المنمقة والدساتير المزركشة مستشهدين بالعلم والفلسفة والتاريخ وضامنين لنا بتنفيذ قوانينهم عصراً ذهبياً يدر على العباد لبناً وعسلا »

لكن هذه الرنة من الارتياب والحذر - بل والتشاؤم - لها عند اديبتنا الكبيرة اسبابها التي تعللها تعليلاً وافيا . فهي محقة اذ تقول على لسان عارف « صرنا اليوم في عصر الكلام الرنان تتلاطم فيه الفاظ الشرف والعظمة والحرية والمرؤة والاحسان والتعاون »

اجل هي محقة لان هذه الالفاظ في افواه البعض ليست الا من قبيل اوراق النقد المزيفة .

غير ان هذا السبب وحده لا يكفي لتعليل موقف اديبتنا من قضية المساواة ، هناك سبب آخر بل اسباب اخرى يسمح لي القاريء ان الخصها بما يلي :

ان اديبتنا برغم الاطلاع الذي تبديه في هذه المجموعة تفتقر احياناً الى صحة القياس كما تفتقر الى ضبط بعض الاصلاحات بمفهوماتها العلمية . وهذا يقودها بالنتيجة الى شبه يأس من قضية المساواة .

تعمد مي الى قياس المجتمع الانساني على الطبيعة الغشيمة فتقول :

« كما ان سطح الارض يتبسط هنا مروجاً وهناك منحدرات واودية ويتشامخ هناك جبالا وقمما ، كذلك للطبيعة البشرية سهول

واودية وقمم »

فهذا قياس اذا جاز في التشبيهات الشعرية فـلا يجوز في البحث العلمي ليبرهن به الباحث ان الناس يجب ان يكونوا في مجتمعهــــم طبقات حاكمة ومحكومة واذن فلا مساواة .

ويبدو لي كذلك ان اديبتنا الكبيرة ضيقت كلمة طبقات بمعناها العلمي . فانها تربط وجود الطبقات الاجتماعية بالكفاءة الشخصية وتقسيم العمـل . مع ان ابسط نظرة تكفي لتوضح ان ليس كـل كفاءة شخصية تضع صاحبها في الطبقات الحاكمة وان ليس كل ابناء الطبقات الحاكمة اصحاب كفاءة شخصية . واما تقسيم العمل فبعضه حقاً نتيجة وجود الطبقات ، ولكن ليس كل تقسيم للعمل معنــــاه وجود الطبقات او عدم المساواة .

وكلمة « مساواة » هذه يظهر ان اديبتنا الفقيدة تذهب في تأويل معناهـا مذاهب غريبة ، فتقسيم العمـل بمعنى ان يكون واحداً زراعاً والاخر حداداً امر يعارض في رأيهــا المساواة . واختلاف المشارب والاذواق هو ايضاً امر يناقض المساواة . لكن الواضح الذي لا يحتمل الجدال ان مثل هذه الفروق ليست هي التي تناقض المساواة. المساواة تناقضها معاملة الناس معاملة مختلفة امام القانون على اساس طبقتهم الاجتماعية . وهذا ما الغته الثورات المعروفة كالثورة الفرنسية مثلا ، الغته من الوجهة المبدئية على الاقل ، ومي تدرك هذا حق الادراك .

وتقول في مكان اخر : « اترى المساواة في سبك العسجد والطين في قالب واحد ؟... وهل الحرية في توحيد العقل الكبير والقلب النبيل مع الفكر السخيف والنفس الزحافة ؟... ولو فعلوا فسووا بين النسر والضفدع افلا تكون هذه المساواة اعظم خيانـة لارقى صفات

الانسان واسخف ظلم لما هو فخر الانسانية وشرفها »

ان المساواة العلمية ليست بين النسر والضفدع بل هي المساواة بين انسان وانسان .

ولو ان اديبتنا الراحلة فهمت مسألة المساواة على هذا الوجه الصحيح ، لما رأت فيها شيئاً يستحيل تحقيقه ، بل لما رأت فيها شذوذاً ولا غرابة ، ولسلمت اديبتنا بالمساواة تسليما عن اقتناع لانها والحق يقال ليست بعيدة عنها .

ولها في انتقاد الديمقراطية والعدمية والفوضوية والارستقراطية والعبودية والرق لمحات تستوقف لما تحمل من صدق وصواب الى جانب التشاؤم البعيد الذي يغمر نفسها في احيان كثيرة ، ويدفعها في متاهات نفسية عديدة يكتنفها الغموض .

وتحت تأثير هذه العوامل ذهبت اديبتنا الكبيرة مذهباً بعيداً حتى انها في كثير من الاحيان تورطت في الغموض ، والحق ان هذا لا يعيبها - وقد كتبت ما كتبت منذ مدة طويلة - كما يعيبنا نحن اذا بقينا نعتقد انها قالت الكلمة الاخيرة . ولكن يكفينا ان يكون ذهن اديبتنا قد دعانا الى التفكير في هذه المجموعة الطلية من المقالات حول « المساواة » .

انها ولا شك الاديبة المفكرة التي ما مرت ، ولا في سانحة من سوانح حياتها ، امام اي مظهر من مظاهر الحياة ، او اي تعبير من تعبيراتها ، الا وارتسمت في مخيلتها علامات الاستفهام ، وانطلق في خاطرها حوار ما كان ينتهي حتى يبدأ حوار اخر ، وهكذا مرت هذه الانسانة على دروب الحياة وفي كل ما صادفته على هذه الدروب ، موضوع لتحليل وتشريح ومتاهات وتساؤلات .

لنسمعها تتحدث عن باحثة البادية وكأنها تتحدث عن نفسها :

« نعم انها التاعت وتألمت . اقول ذلك وان لم ارها يوماً الا بين مظاهر السعادة والهناء . بل لم اقابلها يوماً الا وهي صبيحة الوجه ، طليقة المحيا براقة العينين ، والبسمة تلعب على شفتها . لكن هذه كلها ستائر تنسدل على حركات الحياة الحقيقة حاجبة عن النواظر معانيها العميقة . وهل في وسع من ذاق مرارة الفكر وحلاوته ان يكون سعيداً بالمعنى الذي يقصده البشر ؟ واذا فرضنا انه حاز السعادة على ذلك القياس المألوف ، اتكفي هذه السعادة الاصطلاحية لحمايته من لهيب الالم النفسي ؟ »

واني انقل قطعة شعرية من كتابها « ازهار حلم » الذي نقله الى العربيه الدكتور جميل جبر عنوانها :

في الغسق :

رويدك يا خطاي الحالمة
اتركي في الارض منك اثراً
لقد سرت قابضة قلبي بيدي
تحت الغصون العارية
متمايلة تمايل الولهان
على الاوراق المفروشة الطريئة .

هوذا المساء قد اقبل ... وساد السكون
وهاك اصداءه الخافتة
تتجاوب في اعماق نفسي المتأهبة للذهاب
الى سماء كلها احلام صديقة

ما أحيلاها ساعة الغسق
ساعة ترخي التأمل والشعر
ان قلبي الفتي ينقبض
في بهاء المساء الجميل
والظلام يثقل عليه وقره
واسرار العالم تبدو كالحة
فيترقرق دمعي من غير سبب
ومن غير ما خوف او وجل
دموع طفل لا اخ حوله ولا اخت
تترقرق على جفني المغمض

وانقل هنا مقطعاً من قطعة عنوانها « رحلة السندباد الثانية » - حيفا يافا - وهي نموذج حي لاسلوبها الساحر في الكتابة ، قالت :

« كما تسرع الموجة الصغيرة الى الاختباء في حضن امها بعد مداعبة الشاطىء كذلك تجلس حيفا في سفح الكرمل . كأنها بعد غسل بيوتها في البحر ابتعدت وارتفعت خوفاً من البلل . ومن جوانبها تتشعب السبل الى مختلف الانحاء ... فاسير فيها بالتخيل والذكرى .

« هذه سبيل تحازي شفة البحر الى عكاء الجميلة الضواحي ، الغنية التاريخ . ومن ثم الى حديقة « البهجة » أجمل حدائق تلك البقعة . وفي جوارها « بستان العجم » عزلة كبير البهائيين عباس افندي ، ومن احفل الجنات بالورود . ثم تمتد الطريق وتتلوى ، وترتفع وتنخفض حتى صور ابنة صيدا او ام قرطاجة . صور التي شيدت على ما يروي المحدثون - بامر من تيروس سابع ابناء يافث بن نوح . ويقال

ان اجينور الطروادي سكنها مع أبنائه الثلاثة : قدموس رافع جدران طيبة اليونانيــــة وناشر الأبجدية في بلاد الاغريق . وفينيقس الذي أطلق اسمه على بقاع فنيقيا الواسعة ، واوروبا الذي دعيت اوروبا باسمه .

« من صور هذه انطلقت القوافل النشيطة تنشيء المستعمرات في بلاد لم تكن تعرف معنى العمران . شادت قرطاجـــة منافسة روما بعدئذ ، واوتيكا الافريقية ذات التجارة الفنية ، وقاديشا الاندلسية التي مضى منها الاسبان فيما يلي من العصور للبحث عن العالم الجديد .

« صور اليوم مهدمة كئيبة . وفيها سكينة اليأس والكلال بعد ان كانت الملقى الأكبر للمواصلات مع جميـع العالم المعروف يومئذ . نتابع الطريق منها بامتثال ، على مقربة من بحرها الجميل الفتان ، الى صيدا المدعوة في التوراة « صيدا العظيمة » صيدا العظيمة التي أغرت الغزاة والفاتحين بجمال موقعها ووفرة ثروتها » .

انها بعض من نفثات هذه الشاعرة الدقيقة الحس ، الغنيــــة بالتصورات والانفعالات ، انها خواطر من عقل تلك المفكرة التي ما رضيت ان تمر على دروب الحياة وبينها وبين مظاهر هذه الحياة ستائر من اصطلاحـــات توافق عليها العاديون من الناس ، انها لواعج مستوحشة ، مستغربة ما الهتها « المسؤوليات » في انشاء الاسرة او في الكفاح من اجل قضية للاسرة الكبرى ، فأحست باغتراب وسئمت وقلقت وانهارت .

فلم يفدها «اشفاق» الأوفياء من صحبها، لا النجي فليكس فارس، ولا الصديق الصدوق امين الريحاني الذي دعاها الى الفريكة ، وقد لعب الصديقان دوراً هامــاً في فك الحجر عنها .

عادت الى مصر متحررة الا من كابوس الألم والوحدة والاغتراب والتفجع على شباب مضى ولن يعود وظلت تتباعـــد عن الناس وعن الاصدقاء حتى انطفأت في وحدة مظلمـــة في صباح التاسع عشر من تشرين الاول سنة ١٩٤١ .

فلا يا مي ، لا ، لا تجزعي . . . انك ستظلـــين في الخاطر وفي الذكريات ، الساحرة المتألقة الفنانة ، انك ستبقين « مي » أي شباباً وفتنة ، والاهة في يمينها صولجان العبقرية ، ستبقين :

« مي »



سلمى صائغ

سلمى صائغ

١٨٨٩ - ١٩٥٣

فيهما من صحو السماء على بحرنا، تطلان واحتين ، من حدقتين اعتلتا سيماء تتيه عليها اخيلة من اغوار نفس ، غاصت الى اعماق الاعماق ، من هذا الكائن المعقد في ذاته ، والسادر في مراميه ...

وتجولان في اللامدى من مجالات الدنيا ، متأملتين ، متسائلتين ، حائرتين بما يختلج وبمـــا يعتلج ، في العالم الاكبر المنطوي في الجرم الصغير ، وبما تريانه من واقعٍ وعُرف ، محللتين ، واعيتـــين ، حنونتين ...

انهما عيناها !

ليّنٌ ، خِصب ، مموج ، يُرخي على تلك الزرقـة الحنون ، وعلى هاتيك الطلعة الرائقة ، اشراقة ذهبية وادعة ...

انه شعرُها ، تاج تلك الحلوة الشقراء !

رقيقتان ، ارتسمتا عذبتين ، وشقتا ثغراً ، ما احيلاها ابتسامةً تفتر عنه ، وتُشيع على ذلك المحيـا الانيس دعة طفلة مـا حول اقنى ابي اشمّ ...

انهما شفتاها !

اطلالة عذبة ، تنساب رقتهـا على ذلك الكائن اللطيف ، لتغدو انوثة غامرة ...

انها هي !

حبٌ يدفق من قلب فيه تتجاوب الاحاسيس خلجات صادقة عفوية ، بريئة المطاوي ، وفية لصدق العاطفة البشرية في عمق انسانيتها ...

انها سلمى !

انوثة غامرة ... هي الصورة التي استودعتها خواطر من عرفوها ...

انسانيةٌ عميقة ... هي الديمة انهلت فتملت منها نفوس من احتواهم جوها فسمعوها او قرأوها ...

تلبست انوثة سلمى انسانيتها ، وتلبست انسانيتها انوثتها ، فامحى البيان ما بين هاتين الظاهرتين ، حتى على كل راء رهيف ، لا يدري ايتها سلمى ، فكلاهما ينبوعٌ وكلاهما مصب ، ونفس سلمى بينهما زورق بلا شراع ، يمتطي بمجذافيهما تيار مجرى الحياة .

كانت لكل قلب حبيبة ، ولكل لب قريبة ، فهي حب دافق لا ينضب ، تُضفي على جوها نعمى معاني نداء جاذب كتوم ... ولعلها لم تكن تدري ان نافذتي نفسها ، ناظريها ، كانتا تفتحان للرائي ، مطلات على اناقة الروح ، وغنجها ، وسحرها ، في الحر الطليق البريء من ملاعبها .

كانت جمالا كلها ، ولكم جنى الجمال على الحسان ...

وكانت حباً كلها ، ولطالما اسيء فهم الحب في انسان ...

وايماء وتلميحاً ، فيها ما يُغني عن الدلالة والتصريح ، ذكرت لنا سلمى صداقاتها ومودتها وعلاقاتها ... وقالت لنا حياتها الخاصة بما هو ابلغ من القول ، انها ما صادقت الا الموهوبين ، وما اخلصت الا

للمتفوقين ، من ادباء ومفكرين ... فلا ارباب المال ولا سادة القصور ولا اصحاب السلطان ، ممن حاموا حولها ، وجدوا الى قلبها سبيلاً .. ووجده حبيب اسطفان الاديب المعلم فيما كان يلقي عليهـــا دروساً في العربية ... ووجده اديب مظهر فتى الشعر وشاعر الفتوة ، فيما كان يستوحي ويغرد ... ووجده امين الريحاني فيما كان يسمعها – كما تقول هي : « مقاطع من الشعر المنثور ، وقعهـا على اوتار عود مسحور ، فحومت فوق دنيانا كجنية من نار ونور » ... ووجده فيلكس فارس الذي قالت فيه : « فُتح الباب ، ودخلت القـــامة الانيقة ، واقبل الفنان الذي اطل منذ احدى وثلاثين سنة من فوق منابر بيروت » ...

وكم كانت لي فترة ماتعة ، تلك السويعـــات التي كنت ازور فيها سلمى ، فاحاط بروعة ذلك الاطار المطمئن الزاهي، الذي كانت تعيش ضمنه ... فهنا ، الى حائط من غرفة مكتبها ، لوحة لرسام تناولت ناحية من حياة الانسان ، تفيض بخلجات بشرية صـادقة . . وهناك اضمامة من ازاهر ، تتيه بالوانها ، من فوهـة اناء ظريف ، وضع حيث يجب ان يكون ، بيد سحرية ، لا يمكن الا ان تترك حيث مرت ، تعبيراً عن فن اصيل في طبيعتهـــا ... وهنالك طرفـة من طرائف الابداع ، وضعت على منضدة صغـيرة ، او على رفّ في الزاوية ... غنى ، غنى ، نعم غنى ... وليس هناك شيء من ثمين المقتنى .

وفي غرفتها ، مما كانت ترتديه في خلوتهـا ، كل حلو من كل لون ، فمنه ما بعثر على السرير ، ومنه ما علق على المشجب . وفي ذلك كله مجموعاً ومتفرقاً ، اداة اداء لفن سلمى ، في اختيار الالوان والمطرزات، وفيه ما جعل من تلك الحلوة الشقراء صورة عن المرأة كل المرأة ، في حلاوة انوثتها .

وانوثتها ، تلك الاصيلة في تكوينها ، جعلتها تحن دائماً الى جو الالفة البيتية الدافىء ، وترى في ذلك الجو الاليف ، اهم مقومات حياة المرأة وسعادتها . كما رأت ان الاساءة الى تلك الالفة الهادئة الحنون ، اوجع طعنة تتلقاها المرأة في حياتها .

وانوثتها كذلك ، تلك الاصيلة في تكوينها ، لم تستجب ابداً لنداءات الزواج وطلابه ، ولم تنتفض فيها ذراعي هوى ، حتى عامها الثاني والعشرين ... يومذاك فقط لبت سلمى النداء ، وشاءت ان تكون الزوجة لفريد كساب ، الطبيب الذي تسللت روحه بين اسنانها الى روحها ، فيما كان يعالجها ، والذي استهواها منه ، خلق في النفس ورجولة في الجمال ، والذي كانت فيه تلك الشبكة الصيادة لورقاء الادب : شبكة الادب والبيان .

وانوثتها تلك ، هي التي اهابت بها الى خوض غمار المجهول ، ففادرت موطنها وابنتها وآلها وذويها واحبابها ، سعياً وراء اخ لها في خاطرها ، لا تذكر له وجهاً ، اذ هاجر وحل في العالم الجديد منذ اربعين سنة ، وهي بعد في اول وعي الطفولة ... ويحدث اصحاب سلمى في سان باولو عما عانت هذه الاخت الجناح في البحث عن الاخ الضائع في مجاهل الارياف البرازيلية النائية .. وكم ذا اجتازت من الوف الاميال على البراري والفيافي المعزولة ، حتى التقته هناك مريضاً في مزرعة بعيداً ، بعيداً منقطعاً لذاته عن الدنيا كلها ... وما زالت به ، تطلب اليه العودة للسكنى في العاصمة البرازيلية تمهيداً للعودة الى الوطن الام ، وتُلحفُ في الطلب ، تارة بعقلها واقناعها ، وتارة بقلبها ودموعها ، حتى اقتنع ولبّى ، نزولا عند ارادتها وكرمى لعينيها ... وعادت سلمى من اغوار تلك الابعاد ، تجتاز الشواسع

وتطوي الافاق ، الى سان باولو ، على اجنحة النشوة الكبرى ، لتعد للاخ الوحيد بيتاً ومقراً . . ومـا كانت تدري ان القدر الغـاشم ، سينقض فأساً بايدي عبيد المزرعة ، على عنق سيدهم الغريب ، المتأهب للرحيل ، ويحفر له هناك ، في اقاصي الغربة ، قبراً ومستقرا ...

ويقسو القدر الغـاشم بعدوانه وايلامه ، فتعلن مع مـأساة سلمى تلك ، مأساة الانسانية كلها , باعلان الحرب الكونية الاخيرة ... فاذا الحدود سدود ، واذا البحار اسوار ، واذ سلمى الغريبة هناك ما بين قبر تبكيه ووطن تنـاجيه .. واذا العودة الى وحيدتهـا واهلها ومواطنيها ، حرام عليهـا ، حتى تضع الحرب اوزارهـا ... فتفقد بنعمة الحروب مورد رزقها الوحيد هنا ، حيث كانت تمارس التعليم .

ترى هل كتب على الاديب في بلادنا، ان يأ كل اوراق كتبه خبزاً، وحروف عبقريته إدامـا ، كما كتب على سلمى ، فـلم تستطع تأمين معيشتها الا بارتباطها معلمـة ساعات وساعات في النهـار ، ترهق بها نفسيتها ، وتذيب فيها حشاشتها ... فترحل هذه النـابهة عن اربع وستين عاماً ، لم يصدر لهـــا طوالها سوى كتابين اثنين ، احدهما « النسمات » في الوطن ، وثانيهما « صور وذكريات » في المهجـر ، وتطبق شفتيها على صمت رهيب ، وفيهما لو تسنى لهما القول ، كتب ومواضيع ...

ما لنا نلوم الزمان ؟ ...السنا نحن الزمان ؟

عوداً الى انوثة سلمى... الى احساسها كأمرأة ، بالبيت والاسرة، بحياة الزوج والزوجة .

لقد ظهر احساسها هذا في بعض اثارهـــا . فـ « الغريبان » من كتابها « النسمات » حكاية فتاة اقبلت على دنيـا الزواج ، وهي تطفح

بالاماني العذاب ، والحب الدافق ، يشتاق قلبها العطاء بسخاء لمن قال لها ، وهي جالسة الى قرب التماثيل الرخامية « انها اجمل من كل تمثال صنعه النحات » ، ثم ما لبثت ان خُيبت في عـاطفتها وحبها (اذ عرضت لها حاجة يومـاً ، فدخلت الى غرفة التماثيل ، فرأت رفيقهـا جالساً الى اقدام فتاة وسمعته يقول : « انت اجمل من كل التماثيل التي صنعها النحات » فهربت مسرعة الى غرفتها ...) وها هي سلمى في اعماق تلك العروس الخائبة تقول :

« آه مـا ابرد تلك الجدران ، واسخف مـا عليها من بدائع الفن وثمـين الاقمشة ، كم هي غريبة وسط تلك التحف الغـالية ، وكم هي موحشة تلك القاعات العديدة .. »

« كم هي غريبة وسط تلك التحف الغالية »

هكذا قالت سلمى ...

ان كل رياش الدنيا وزخارفها ، لا تمـلأ فراغ قلب المرأة ، ولا تؤنس وحشتها ، اذا هي فقدت دفء عاطفة الحب ، واظلمت دنياها من ضياء ينشره طيف حبيب امين .

المرأة ترنو الى الوحدانيـة في الحب ، فتنهار امالهـا ، وتسكت خلجات المحبة والالفة في نفسها ، اذا ما لمست ان ذلك الاله المعبود ، الذي اشتاقت لقياه طويلاً ، ودخلت معـه معبد الحب ، يُشرك في حبه سواها، فيسيء الى قدسية الهيكل الذي شيداه لينشأ فيه العائلة.

فتقع الكارثة العاطفية بين رفيقين ، لم تعد تربطهما الالفة والمحبة ، ولم تعد تريح نفسيهما الثقة المتبادلة .

وهنا يطرح فوراً السؤال الدائم :

اي موقف للمرأة ههنا ؟

الاجوبة كثيرة ومختلفة . وامومة المرأة تطرح هنا ، باعتبارها مهمة المرأة الاساسية ، ومالئة حياتها باعذب العواطف واحلى الاماني. ولكن هناك ، الى جانب الاجوبة المدروسة ، والحلول المفروضة ، تفاعلاً نفسياً جباراً ، يبدو انه يتجاوز مـا ترسمه تلك الاجوبـة من اقنية وخطوط ، فيرسم هو لذاته مجرى طبيعياً . بشرياً ، نراه يجتذب اطيافاً تعبره سادرة ، ولعل سلمى كانت من هذه الاطياف .

فالانوثة ليست امومة وحسب . ان الانوثه بمعنى الامومة فقط ، انوثة مبتورة . ومـا الناحية الاخرى الا استكمالا لشخصية المرأة الانسان .

على ان سلمى بانوثتها المستكمـلة ، كانت تحب الاسرة وتضعهـا موضـع التقديس من نفسها ، فهـا هي تقول في قطعتهـا « الارواح المتمردة » في كتابها « صور وذكريات »

« لان الفرد العائش في جو ظلم وتعسف ، يهرب من الحياة العامة وينكمش على نفسه . هو يلجأ الى الزاوية الوحيدة ، حيث يجد الراحة والاستقرار ، الى البيت ، الى الزوج والولد ، فهنالك لا كذب ولا رياء ـ على الاقل »

... هذه العبارة ـ على الاقل ـ تستوقف !

تلك كانت نظرة سلمى الى الاسرة ، على كل حال ، فهي ترى انها موضع الراحة والاستقرار ...

على ان حياتها تبقى سؤالا ...

و « الغريبان » . . من هما « الغريبان » ؟

ما لنا ولهويتيهما . هو من مصر ، وهي من لبنان ... هكذا تقول القصة ـ قصة سلمى .

ان ما نعرفه عن « الغريب » قد لا يسمح لنا بان نحمله تبعة ما حدث ، كما ان ما نعرفه عن « الغريبة » ايضاً لا يسمح لنا بذلك .

فهل هي قوة الشخصيتين : شخصية الزوجة ، وشخصية رفيقها ، حالت دون تساهل احدهما نحو الآخر فوقع التصادم ؟ ام كان هنالك فرض بالتساهل من ناحية دون اخرى؟ المحتمل انه كان ذلك، فالعرف والتقليد ، يفرضان دائماً على المرأة ، دون الرجل ، ان تتساهل وتغفر .

ولرب قائل يقول : ان عوارض التنوع التي تبدو على بعض الرجال في اهوائهم ، هي في طبيعة النفس البشرية . ترى أليست النفس البشرية واحدة في كلا الرجل والمرأة ؟ . .

على ان التساهل والمغفرة ضروريان ، لا سيما متى وجد الاولاد .

وكما كانت سلمى انوثة طبيعية باعماق ذاتها ، ومراحل حياتها ، وكل مظاهرها ، هكذا كانت كذلك ، انوثة طبيعية بكل ما خطه قلمها من انتاج . فنفسية المرأة ، بقلبها وحسها ، بينة تبدو في عبارات سلمى ، وتنتفض اختلاجات امرأة ، وحنو ام ، وجناحي صديقة ومواطنة ، وآهات انسان ... واناقة الانوثة برقتها ودقتها وعذوبتها، بل بزينتها وتبرجها ، بينة واضحة ايضاً ، تبدو في عبارات سلمى كلمات انيقة ، رقيقة دقيقة ، وحروفاً عذبة مزدانة متبرجة .

لنستمع اليها تقول بلسان جندي فتى في « اغاني الجنود » :

« خذوني الى صدر امي ، والى انفاسها النقية . خذوني ، ان في نظرات النساء نعيم الحياة ، وفي نبرات اصواتهن اناشيد الخلود . »

وتقول : « انا فتى اقتطعوني من صدر امي ، وامي عروس بين البنات ، وفلة بين زنابق المروج » ولنقرأها في قولها الى ابنتها الى

عائدة :

« يا حلاوتك عندما دببت ، وعندما شببت ... بل قبل ان ولدت ... عندما تململت لاول مرة قرب فؤادي ... وعندما كنت اسقيك مذوب قلبي . »

لنستعد كل ذلك ، واكثر من ذلك ، ولنتصور هاتيك الانامل الرخصة ، تتناول ذياك القلم الرشيق ، ليمضي متوثباً مشيقاً ، ويخطر كصاحبته ، رفيق الخطو ، شجي الايقاع ، عميق المعاني .

وانسانيتها هذه ، تدير دائماً انظارهـا الى فوق ، حيث تمحي الفوارق ، وتغيب الضغائن والاحقاد ، تائهة في اللامكان فتقول في « اجراس العيد » :

« اهتفي .. اهتفي ايتهـا النواقيس ، اطمسي برنينك عربدة السكان وانين المرضى ، وضجيج المفسدين .

« هللي ايتها الاجراس ، مساء وليلا ، وباكراً وسحرا ، شاركي المؤذنين المقيمين ـ مثلك ـ في القباب ، والصارخين ـ مثلك ـ بالناس، الى طرح اثقالهم على اقدام الرحمن الرحيم .

« امزجي رنينك بنشيدهم الوقور المهيب ، فلعلّ اصواتنا المتنافرة على الارض ، تتقارب وتتحد فوق الضبـاب ، وتعود الينا برداً وسلاما . »

ما اروع هذا الايمان المنغم الشجي ...

ولنسمعها شفوقة ، رحومة ، عادلة انسانة ، في حكاية « هيفـاء الديرانية » اذ تقول : « قلب فقيرة ، وحكاية فقيرة ... نعم للفقيرات قلوب ـ كما لذوات القصور ـ تهيم وتشتاق ، وتتفجع وتلتاع ، وتحن وتئن . »

نسمة كانت سلمى .

نسمة كانت روحها ، ونسمة كان حديثها، ونسمة كان بيانها .

نسمة كان جسدها ، ونسمة كانت خطواتها ، ونسمة كان عمرها .

وما « النسمات » ــ كتابها ــ الا هي .

صوراً وذكريات ، كانت انطباعاتها . وصوراً وذكريات ، كانت دروسها ومواعظها .

وتبقى لنا سلمى في « صور وذكريات » كتابها الثاني .

ماذا ، سوى المرأة في انوثتها ، كانت هذه الراحلة ؟

لقد كانت انساناً ، بل فلنقل انها كانت انوثة غامرة ، في انسانية عميقة ، انسانية شملت كل ما يتناول الانسان ، من عقد نفسية ومعقدات حياتيـــة ، واحستها كلها برهيف حسها ، وعميق وعيهـا وشامل ادراكها ..

فها هي ، وقد هزها منظر جندي كهل ، يتحكم به ضابط يافع ، تقول بلسانه :

« فتركت مدينة ابائي ، وسرت بين يدي ضابط صغير خليـع ، امسح حذاءه ، واطعم فرسه .. »

وتتحسس ايضاً شعور الجندي الشاب ، حين تستيقظ انسانيته ، فتقول بلسانه :

« حصدت وحصدت ، حتى ذابت حشاشتي من منظر الدم ، فصرخت : رباه ، اما للجور قاهر ؟

ولنسمعها في ما يلي ، كيف تحس واعية ، واقع الانسان في عالمه ، فتهيب به الى الصراع في هذه الحياة :

« وسافر الغريب بعيداً لمكافحة الايام ، والايام تيار عنيف اهوج ،

يسحب الضعفاء ويكفنهم بامواجـــه ذات الزبد ، ثم يرميهم في بحر الظلمات ... والحياة مقصف هيأته ايدي الغواني ، وصفت على موائده اكواب الغبطة واثمار الهناء ، ووقفت اجواقهن على بابـــه ، تستقبل الداخلين ، فمن كان عابساً كئيباً صفع وطرح خارجاً ..

« لان الكآبة وباء يهرب منه الآكلون والراقصون والشاربون . »

انها لصورة رائعة ، لواقع ينقض على الضعفاء والمستسلمين الكئيبين ، خطتها يد سلمى ، فمن شاء تلافيه ولم يقبله لنفسه مصيراً ، وجب عليه ان لا يكون ضعيفاً كئيباً ، مستسلما ... ذاك مـــا تشير اليه سلمى الواعية ، بادراكها الانساني لحق الحياة .

وماذا بعد من خلجات سلمى الانسانية ؟

حبــذا لو يتسع المجال ، فاورد هنـــا الكثير من تراجيع نفسها ، هذه النفس ، التي كادت تحيط بكل من رأت ، وبكل مـــا سمعت ، حتى قالت صـــاحبتها « ونفسي منذ وجدت ، تسير بين الناس ، وتتفرس في عيونهم ، علها تجد رسمـــاً او شبه رسم للطابع الاسمى . »

وما هو الطابع الاسمى يا ترى عند سلمى ؟

حسبنا ان نستمع اليها في هذا النداء ، فنكتفي : « لنكن ما نشاء ايها الناس . لننتم الى حمورابي او الى فرعون ، او الى التتر ... ولكن لنكن بشرا .. »

لنكن بشرا ...

هذه هي الدعوة الانسانية الصافية الصادقة ، التي انتدبت سلمى نفسها اليها ، فكانت هي بذاتها اولا ، استجابة لهذه الدعوة ، وكانت اقوالها ومواضيعها كلها ، صدى مستحباً لهذه الدعوة .

ولا بدع في ان تتجند سلمى صائغ ، قلباً وقلماً ولسانا ، طوعـاً واقداما ، تحت لواء الدعوة الكبرى ، ليكون الناس بشراً . . .فسلمى من امة عرفها التاريخ منذ صباحه ، معلمة هادية ، وسلمى من بلاد ، شهدت لها الدنيا ، بالرسالات الانسانية السمحة . وسلمى من مجتمع ، كان اول مجتمع ، اطلع للعالم انساناً قال لبني الانسان : لنكن بشرا . .

ليست الانسانية البشرية الكونية ، غيبيات يطاردها الخيـال في المجهول ، وما وراء المنظور . وليست مطلقات غامضة سادرة في مدى الظن والحلم المعسول . انما هي قيم حياتية ، تنبثق من الانسان حيثما كان ، وترافقه في سياق عمره ومآتيه ، قولاً وعملا ، وتدفعه دائمـاً صعدا ، من اجل ما هو افضل ، بالنسبة الى الاطار التي تدور فيـه حياته ، نعني مجتمعه ، بكل ما تحويه هذه الكلمة ، من مقومـات المعرفة والاكتفاء والعيش اللائق الحر الكريم . وهكذا تكون الانسانية واقعاً اجتماعيا . ولا يمكن الا ان تكون واقعاً اجتماعياً . من هنا ، اطلقت سلمى صرخـاتها الوجدانية ، امام كل اعتداء على بني قومها من جميع نواحي حياتهم ، ومن انـّى اتى هـذا الاعتداء . ومن هنا كانت نداءات سلمى ، وليدة مجتمعها الذي ورثت عن اصـالته الانسانية الحضارية العريقة اصـالتها ، وقد شاءها في عداد من شاءهم منه للتعبير عن امسه ويومه وغده .

فمن الامس البعيد ، استمدت سلمى « حكاية الاثار » في بلادهـا فقالت تخاطب بني وطنها ، « ننتقل من لندن الى باريس ، الى برلين ، الى جنيف ، ونتآلف مع البنايات والمتـاحف والمسارح والممثلين والممثلات ، اكثر من تآلفنا مع بيوتنا وعائلاتنا . . . اما بلادنا ، فنكاد لا نعرف عنها شيئاً ، ولا نكلف نفوسنا المعرفة . . »

ولكشف ذاك الامس البعيد عرّبت ابحاثاً عن اثار بلادها ، جاء فيها قول الدكتور كونتنو ، عن مجلة Mercure de France «لا توجد بقعة من بقاع الارض ، شهدت ما شهدته هذه البـــلاد ، فكأنها بكاملها ، منجم لا يفرغ ، يحوي الشهادات الحية ، عن الماضي الصـــامت ... ان البلاد غنية بالاثار ، ولكن جميع هذه الاثار مبتورة ناقصـــة ... والسبب في وجودها على هذه الحالة ، هو ان الفتوحات التي حدثت في سوريا ، كانت سلسلة معارك دموية ، قضى فيها الغـــالب على كل ما للمغلوب من صامت وناطق.. وبتعدد اديان الفاتحين ، كثر التخريب والتجديد . »

ولهذا اليوم وابناء هذا اليوم في بلادهـــا ، جأرت سلمى تقـول : « ليخفف الماروني من حبه لفرنسا والبروتستنتي من حبه لانكلترا ، والارثوذكسي من حبه لروسيا ، والمسلم من حبه لكل الجـــامعات الاسلامية ... لنخفف من حبنا للناس ايها الناس ، فمن العناق ما هو خنّاق ... »

وباسم هذا اليوم ، هتفت سلمى تقول : « كبيراً كنت او صغيرا ، فانت انت يا لبنان ... »

وشأن كل لبناني من هذا الجبل المطل على ما لاصقه وداناه، طوت سلمى في فؤادها الام فلسطين وأمالها، وكتبت تقول عن جولة لها فيها : « جلست أصغي الى نبرات السيدات الفلسطينيات الحماسية يستعرضن امامي حالة فلسطين ، وشقاء الفلاح ، وقد طرده المشتري ، فهام على وجهه ، معدماً متجرداً شريدا » ... وتقول في ذلك اليوم من سنة ١٩٣٣ ، « بقيت في بيت المقدس عدة ايام ، أتلمس في عيون الشبان والشيب ، طلائع الثورة الحمراء » ...

ومن اليوم ، يوم بلاد سلمى الذي عاشت فيه ، كانت لها أقوال .. اسمعوها تقول :

« كنت أَعُدُ على اصابعي لئلا أغلط بالعد ، فيضيع الحساب . عددت :

« حزب الاستعمار الانكليزي ، حزب الاستعمار الفرنسوي، حزب الاستقـــلال مع الوصاية الانكليزية ، حزب الاستقلال مع الوصاية الفرنسوية ، حزب الاستقلال التام الناجزبلا وصاية ، حزب الضم ، حزب الفتح ، حزب التجزئة ، والساحل ، ولبنان الكبير ، ولبنان الصغير ، ولبنان الاصغر .. اف ، يكاد نفسي ان ينقطع » ...

وفي هذا اليوم المتجهم ايضاً صرخت سلمى : « من هو طفل محمد مصطفى من البسطه ، وطفل يوسف توما من شنانعير؟ هما طفلاي انا ، وطفلا كل امرأة شرفتها الامومة . فاذا كنت ، وانا ام ، لا اعرف ان اشفق على طفل جاري ، فقد سقط عني لقب الامومة الالهي ؟ ..

ومن هذا اليوم كذلك ، استمدت سلمى قولها التالي : « استقلالنا اعطي لنا بحـــكم ظروف فاقت التصور . فالظروف الطارئة شيء ، والتطور الطبيعي شيء آخر . على انه لو اعطي او لم يعط — فليشتغل كل منا لاجل هذا التطور » .

وفي هذا اليوم ايضاً تأوهت سلمى فقالت : « يا بلادي ، ما أكثر المتقاتلين على هواك ، وما اقل حظك من ذويك ... اريد بـــلادي عزيزة مناعـــة . اريدها متشبعة من كل ما اندثر فيها من المدنيات ، ومفرقة على العالم دروس العلم والحكمة ... يا أبناء بلادي القريبـــين والبعيدين ، يا ابناء بلادي اعطوني وطناً والا اموت » ..

سلمت يا سلمى .. لن تموتي .. فانت حية حياة الوطن وبقاءه !

اما المسائل الاجتماعية ، فلقد كانت لسلمى كما هي حتى اليوم للكثيرين ، خيرات ومبرّات وصداقات واحساناً واسعافاً ومؤساة !

فهي التي كانت تدعو دوماً للعدالة الاجتماعية وتبشر بالعدالة الاجتماعية كانت ترى في جمعيات البرّ والاحسان تحقيقاً لتلك العدالة ، دون ان تدرك ان مهمات هذه الجمعيات ، على كونها خيرة ومفيدة ، لا تكفي لتحقيق العدالة الاجتماعية ، ودون ان تنتبه الى ان مرض النظام الاقتصادي والاجتماعي الفاسد لا تستأصله الصدقة .

ان في الصدقة اذلالاً يكرّس الفقر ويبرر استمراره.

ولم يخطر على بال سلمى مطلقاً ان الاعمال الاجتماعية لا تقتصر على الاسعاف والمساعدة ، بل هي فرع من دورة حياة توجب نظاماً اقتصادياً عادلا يحقق العدالة الاجتماعية حقاً لا صدقة وفعلاً لا قولا .

ان المفاهيم الاجتماعية والاتجاهات كانت عند سلمى ظروف .

ولا نصفها فاقول : بل كانت حيرة وتيها وقلقا ... ان عقائدياً او اجتماعياً .

عفوا يا سلمى ، فلم تكوني وحدك في الحيرة والتيه والقلق ... اننا نحن كمثلك ما زلنا في ذلك ... في داء فوضى المفاهيم ... داء العصر !

ولدت سلمى في ٣ كانون الاول سنة ١٨٨٩ يوم عيد البربارة وتوفيت يوم الاحد ، السابع والعشرين من ايلول سنة ١٩٥٣ عن ٦٤ عاماً .

ماذا جنت من جهدها وجهادها ؟

اجنت ما يوفر لها العيش الكريم ؟

أأعطيت من شجرة غرستها او تعهدتها ؟

بلى !

اعطيت وساماً

وردت هـذا الوسام بيدها الى مـانحيه ، ساعة رأتهم يخنقون الحريات ويحطمون الاقلام .

غير ان منطق هذا البـلد ابى الا ان ينتهي بمأساتهـا الى حيث وقوفه عند الشكليات ، فتكرم عليها بوسام منحته وهي مسجاة على سرير الموت .

فكانت تركتها وسام .

وقبل الختام اود ان اقول كلمـــة عمن قالوا ويقولون ، وتقولوا ويتقولون عما هي عندي ، معلمتي وصديقتي ونجيتي ، رائدة الأدب النسائي الصادق في عمرها ،

هؤلاء ... تشفق عليهم سلمى وتبتسم ...

حسبي انني كنت صادقة في سرد حياتها الصادقـــة سيرة وتحليلاً وعبرا ...

وحسبي ان قرّاء السيرة يدركون وينصفون ...

واكتفي بالقول ان فن كتابة السيرة لم يعـــد للمدح والأطناب والوعظ والارشاد ، بل هو كما تفهمه الآداب العالمية ، صدق وتحليل في السرد والموضوع ...

وان سلمى صائغ التي ارتفعت في كتابي « آهة من بلادي » كانت وما تزال وستبقى آهة في فؤادي ...



روز عطاالله شحفه

روز عطاالله شحفه

١٨٩٠ - ١٩٥٥

لم تكن روز عطاالله شحفه اديبة بالمعنى الصحيح ، أي لم تعرف بصفتها كاتبـــة ولا هي مارست الكتابة الا في المناسبات التي كانت تصادفها في سياق حياتها الاجتماعية ، اذ انها كانت ، مذ اطلالتها على دنيا الشباب والفتوة ، من ابرز الوجوه النسائية التي عملت في حقل الجمعيات والمؤسسات المختلفة حتى تولت رئاسة الاتحاد النسائي الذي كان يضم جميع الجمعيات النسائية او اكثرها .

وكانت خلال سياق حياتها المجتمعية هذه تلقي الخطب في المناسبات العديدة وتكتب بعض المقالات في مواضيـع اجتماعية ، ولم تكن تحب التطرق الى النواحي السياسية بمعناها العنيف وكانت تحب ، اثنـاء توليها رئاسة الاتحاد النسائي ، ان تبعد هذه المؤسسة كل البعـد عن الشؤون السياسية ومعقداتها ، لا سيما وانها كانت ، بعقلها الثاقب ، تدرك انه يستحيل على منظمة كالاتحاد النسائي التي تؤلفها مجموعة من السيدات من مختلف النزعات السياسية والعقائدية ، ان تلج باب السياسة ، ويظل الانسجام مهيمنا على أجوائها .

واذكر انني كثيراً ما كنت اتجادل معها في هذا الموضوع آخذة على الاتحاد اعلانه ، في كل مناسبة ، بعده عن الشؤون السياسية وهو الذي يضم في جملة اللجان التي يضمها ، لجنة تدعى « لجنة الشؤون

السياسية » فكانت تجيبني بواقعية واعية مدركة :

« ما العمل ما دام الانسجام لا يتم حتى بين اعضاء هذه اللجنة على قلتهم » ؟

أليس هذا الواقع هو اليوم ، مهما اختلفت الاسماء التي تطلق على التجمع النسائي ، سواء ادعي « الاتحاد النسائي اللبناني » ام « جامعة الهيئات النسائية » ؟

ولدت روز شحفه في بيروت سنة ١٨٩٠ من ابوين لبنانيين ، هما عبدالله عطاالله وحسن بريدي ، وتعلمت في مدارس الاميركان في بيروت ومدارس الانكليز في برمانا ، فكانت ثقافتها انجلوساكسونية .

وعندما تزوجت سنة ١٩٠٩ من سرحان شحفه غادرت بيروت معه الى دمشق حيث قامت بنشاط ملحوظ في الاوساط النسائية والاندية الادبية التي كانت تدعوها للخطابة ، وانتسبت للجمعيات النسائية حيث مالبثت ان احتلت مراكز القيادةوقدتولت رئاسة نادي السيدات في دمشق .

ونرى في كتابها « وحي الامومة » وهو مجموعة لخطب القيت في مناسبات ومقالات نشرت في صحف ومجـــلات جمعها جرجي باز ، شيئاً عن نواحي نشاطها في هذه المرحلة من حياتها التي امضتها في دمشق اذ بقيت فيها من ١٩٠٩ الى ١٩٢٥ .

فنرى انها دعيت للخطابة في النادي الادبي في دمشق ونقتطف من هذا الخطاب وعنوانه « سنة جديدة مباركة » المقطع التالي :

« كتبت احدى المجلات الاميركية مقالاً لـكليد كلارك موضوعه « سنة جديدة مباركة » تهزأ بقومها الاميركان اذ تقول لهم :

« تخترعون الغازات الخناقة وتضاعفون حجم المدافع الرشاشة ،

وتتسلحون بكل مادة ووسيلة لاهلاك الانفس البريئة ، ثم تقولون لبعضكم : سنة جديدة سعيدة مباركة . اوليس قسم من هذه المدمرات من مخترعات الامة الاميركية . فسنرى يوماً نيورك العظيمة وفيها الخمسة ملايين من الناس راقدة في احدى لياليها بسلام وسكينة . فيصدر احد القواد امراً باعدام من فيها بالغازات السامة المتنوعة فيهب السكان المساكين مذعورين متألمين وصارخين ، ولا تمضي دقائق معدودات حتى يصبحوا بحكم العدم جثثاً هامدة ثم ماذا نقول : سنة جديدة مباركة »

ان تكون روز شحفه اختارت هذا الموضوع ، واختارت لموضوعها هذا مقال ذلك الاميركي حول التناقضات بين انصراف العقل لايجاد الوسائل الاكثر فتكا بالانسان وبين التمنيات « الرسمية » لعام او لاعوام جديدة مباركة ، ان تكون روز شحفه وعت هذا التناقض ووقفت عنده هنا ، في هذه البقعة من العالم وفي عام ١٩٢٤ وهي امرأة وفي تلك الحقبة ، فدليل واضح على تعمقها في الامور وعلى تلمسها القضايا الاساسية لمشاكل الانسان انى كانت .

ولا يسعني الا التساؤل هنا ماذا عسى كليد كلارك ان يقول اليوم في عهد القنابل الذرية والاسلحة النووية تضاف اليها تلك الاسلحة الاكثر فتكا لانها تشوه العقل ، واعني بها اسلحة الدجل والنفاق في دعايات ملفقة لا يدري معها الانسان الى اية جهة يلتفت ليرى الحقيقة؟ ماذا عساه ان يقول ؟

اما روز شحفه فعلقت على قول كليد كلارك في خطابها المذكور بما يلي :

« فلماذا لا يصرف العالم والمخترع قواه وذكاءه في خير العالم ، في

ايجاد السلام الحقيقي فتحل علينا بركة الاجيال ونقول سنة جديدة ، جديدة سعيدة ومباركة ، دون استهزاء ...

« نحن لا نخترع الغازات السامة ولا سواها ، بل نخترع غازات خانقة لذكائنا مطفئة لتلك الشعلة السماوية قاتلة لمواهبنا .

« الخنوع ، الاستسلام للتقادير ، المحيط ، الشكوى من الزمان ، الحكومة ، كل هذه نرددها عندما نرى تقدم سوانا وفشلنا . فما لنا ولكل هــذا لننظر باخلاص الى ما نستطيع استثماره من البركات في ابتداء هذا العام الجديد لتكون سنتنا الجديدة مباركة » .

وتكلمت في جامعة السيدات السوريات سنة ١٩٣٠ ، في الحفلة التكريمية التي أحيتها الجامعة احتفاء بالاديبة اليس قندلفت بمناسبة سفرها للعراق فقالت :

و « ان حرمت سوريا من علمها وادبها العالي فليس لنا عليها من موجدة ، والفضل للمتقدم بالطلب ، فلقد سبقنا اليها القطر العراقي الشقيق الذي نهنئه بها ، ونشكره لعقده الفصول الطوال في جرائدهم تقديراً لجهودها » .

يستنتج من ذلك انها ظلت ، رغم عودتها الى لبنان سنة ١٩٢٥ ، على اتصال وثيق بالحركة الفكرية والاجتماعيــة في القطر السوري الشقيق اذ بقيت هذه الأوساط نفسها تدعوها في كل مناسبــة الى الاشتراك بأي مهرجان او حفلة .

وفي عــام ١٩٢٥ عادت الى بيروت حيث أقامت مع اسرتها وانضمت الى عدة جمعيات نسائية وقفزت تواً الى مراكز القيــادة ، ناشطة ، موجهة ، منظمة فتولت رئاسة جمعية امهات بنات الاهلية وانتخبت سنة ١٩٤٣ رئيسة الاتحاد النسائي اللبناني حيث أبدت

حيوية فائقة مدخلة النشاط الى الصفوف النسائية وقد قالت في هذا الصدد عن النساء :

« ليحملن مع الرجال عبء الحياة المتنوع الغايات ويتطلعن من وراء هذه السجوف من التقاليد المزمنة الى اصلاح منشود والى تبعات خطيرة يتحملنها كامهات وربات بيوت ، وكزوجات ومواطنات في هذا الجبل الاشم الصغير ، الذي يردنه كبيراً في ملكه ، عزيزاً في غاياته ، عظيماً في أعماله متسامياً في بناء انسانية عامة يزول معها كل ما يؤخر في سيره الى الامام – حاثا مواكبهن لتتلاقى مع مواكب الرجال ، فينتظم العقد ، وتتوازن القوى وتشحذ الهمم – ويبقى لبنان في الطليعة مصدر الاعجاب للاقطار العربية بذكاء أبنائه وبناته وتطلعهم بمنظماتهم نحو المثل العليا » .

ولكن روز شحفه لا تلبث ان تقع في التناقض يسببه عدم التوقف عند مسؤولية الكلمة وعدم وجود اللحمة في الرأي الشامل حول الامور الجدية ، شأنها في ذلك شأن الكثيرات ممن انبرين للتحدث في الشؤون العامة او الكتابة في المواضيع المختلفة دون التعرف الى خط فكري واضح او اعلان أي رأي على ضوء التزام الجد في الامور .

ان هذا الواقع لا يقتصر على كل حال على النساء وحدهن في بعض الاحيان .

فتقول روز شحفه – بعد هـــذه الدعوة الى « شحذ الهمم ليبقى لبنان في الطليعة مصدر الاعجاب للاقطار العربيـــة » ... تقول في خطاب القته في مدرسة برمانا حيث أمضت بعض سني الدراسة في حداثتها ، فتقول بعد ان تمتدح رئيس المعهد على كونه « لم يعمل على فرنجة او تغيير عادات طلبته » : « وان انس فلن انس كلمة قلتها

عند نيلي الشهادة المدرسية ، وكان موضوعي اذ ذاك –البدو والحضر– قلت في احـــد مقاطعه – فلو اسعدني الحظ وكنت بدوية لاستفزتني النخوة البدوية وانطقتني الحماسة العربية – ولكني لسوء حظي حضرية بنت حضري ، وتغنيت بابيات الشاعر العربي :

ولبس عباءة وتقرّ عيني أحب الي من لبس الشفوف
وبيت تقصف الارياح منه أحب الي من قصر منيف
فهذ، بداوتي فيها افتخاري ولا ارضى سواها من اليف

« فهذه المبادىء الوطنية القوميـــة (؟) كانت تغرس في ناشئته منذ الصغر ... »

فتأمل أيها القارىء لو درجت الدول العربية او سواها من دول العالم ، على ان « تغرس في ناشئتها منذ الصغر ، (هذه المبادىء الوطنية القومية) ، اذن لقلنا على التطور والتقـــدم السلام ولبقيت الامم في المؤخرة من سير الزمن ، وظلت متمسكة بكل قديم ولطرحت جانباً كل مظهر من مظاهر التطور والرقي .

ثم ،لما كان باستطاعة نساء لبنان اللواتي دعتهن روز شحفه « الى شحذ الهمم ... ليزول كل ما يؤخر لبنان في سيره الى الامام ، ليبقى في الطليعة مصدر الاعجاب للاقطار العربية ... » لما كان باستطاعة نساء لبنان ان يعملن على شحذ هذه الهمم في سبيل ازالة « كل ما يؤخر لبنان في سيره الى الامام . ليبقى في الطليعة مصدر اعجاب للاقطار العربية »

وفي خطاب القته في حفلة تأبين « جبران التويني نصير المرأة » . قالت :

« لا تمت تلك الشجرة الباسقـــة التي اينعت غصونها وامتدت

جذورها ، هذه الشجرة التي غذت بثمارها جوع البلاد العربيــة ، وبعثت من معين قلبها ماء الحياة والروح ، ومن عزز فكرة غرسها في لبنانه ليزيده جمالاً وروعة وغنى »

وفي « المرأة والفن » قالت :

« لم ترتق امة وتنل عظمتها بين الامم الا بالفنون الجميلة – فالفن قوام المدنية وعامل اكبر في حضارتها ورقيها ، واليونان يوم كانوا باوج عظمتهم كان للفن اليد الطولى في بلوغهم تلك العظمة والحضارة – ولم تزل آثار جدهم وميلهم اليه ظاهر حتى اليوم .

«الفنون الجميلة هي المحرك الاكبر لتهذيب العواطف وترقية الشعور ورفع النفس الى ما هو أسمى ، والفن هو المدرس والقائد العظيم للبشر اذ يعلمهم ويقودهم لرؤية الاشياء جميـلة مهما كانت حقيرة وقبيحة يخترقون بقوة شعورهم الذي هذبه الفن ما وراء الحجب ليروا جمال الوضعية الطبيعية ويمتعوا نفوسهم بمحاسنها ، ويفيضوا من شخصياتهم معان وتعابير تزيد ببهائها رونقاً وجمالا وظهوراً .

« فالمصور مثلاً يبكر ساعات الفجر ليرى جمال الطبيعة الساكنة، عندما تشرق الغزالة من وراء الافق ويمتــد بساط اشعتها من فوق الحقول وتضفي على الطبيعة ثوباً من الجلال – الزارع في الحقل يحرث الارض ومواشيه ترعى الكلاء – ومياه السواقي البلورية تنساب في الحقول لتروي اديمها وتنعش نباتها – في ذلك الوقت المهيب ، يرصد المصور على لوحته روعة تلك المناظر وبهائها ، فتتجلى الحيــاة بغتة ويقدم لامته عصارة روحه – هكذا قل عن كل مشهد طبيعي يصور فيه الروح التي تختلج فيه ولا يراها سواه » .

لا شك في ان في هذا المقال محاولة ادبية من قبل الكاتبة ، شاءت

فيها ان تبعد عن الاسلوب الصحفي الذي الفناه في اكثر مقالاتها ، ولا ادري الى أي حد وفقت في هذه المحاولة .

واني أنقل هنا مقطعاً من مقال عنوانه :

« أيها المحتكرون ، افتحوا الاهراء»

أتريدون ان تمثل في بلادكم فواجع اليونان

« يعز علي وايما الحق ان اسمع اصواتاً تتعالى من قواد الرأي العام— من الصحافة على اختلاف الوانها ومراميها — تطلب بالحاح وقف هذه الحالة الشاذة عند حدها لئلا تكون الباب الاول لدخول المجاعـــة ، والمرض ، والبؤس ، دون ان تسمع صدى .

« ويسوءني اكثر ان أرى بعيني رأسي هذه المآسي تتمثل في قلب المدينة دون ان يشعر بها أبناؤها — ووجودي عضواً في الصليب الاحمر الاميركي أباح لي رؤية مشاهد فاجعة في كل ناحية ، مما يزيد في شجوننا مع اخواتي ويدفعنا الى سكب الدموع ، بينما هـــذه وحدها لا تجفف دمعة البائس، لذلك أردت ان أشرك معي من لم ير هذا الشقاء بعينه، ليحسه بقلبه وشعوره .

« أحياء كامـــلة تفقدناها ، فكنا نحار أي بيت فيها لم ترسم يد الفاقة والعوز عليه اسطرا من قساوتها وشقائها، وكم ام رأيناها تسبل الجفون على العيون الحيية التي ما اعتادت ذل السؤال ، وتقول « لولا اولادي ، آه لولا اولادي! » بينما دموعها تفيض لتغسل ذابل الجفون— ماذا اطعمهم وقد منع عنا الغلاء حتى رغيف الفقير الذي كان لنا فيما مضى برخصه التعزية والسلوان . زوجي مريض ، واولادي الاربعة ، لمن اتركهم وليس من يحنو عليهم ؟ ارحموني يا اخواتي في الانسانية ، ماذا جنيت لارى هذه الايام السوداء » .

يرى القارىء ان روز شحفه كانت مصلحة اجتماعية ، تهزها مآسي البشر ويوجعها بؤسهم .

لقد عرفتها شخصياً واذكر انني كنت دائماً المس عندها اشفاقاً طبيعياً على الناس واستعداداً عفوياً لاحلال السلام والمحبة بين الجميع .

كانت تحب عن حق وقناعة صميمة ، كانت تحب الخير للجميع .

لقد توفيت في مصيفها في بيت مري ، صباح الاحـــد من ٦ آب سنة ١٩٥٥ .

ولا أرى ، ختاماً لهذه اللمحة عن حياتها ، أحسن من ان اختمها باهدائها هي نفسها للكتاب الذي تولى جرجي باز جمع مقالاتها فيه ، فكان لها مؤلف وكان ان تناولتها هذه المجموعـــة من سيرة اديبات لبنانيات ، قالت في اهدائها :

« نفحات قلب ، سامرتني ، في اوقات مختلفة ، لها مضطرمها ، في حب وطني ،

اقدمها الى زوجي وأبنائي ،

عاطفة ام ، قد اتخذت المحبة والخدمة والاصلاح ، شعاراً .



حبوبة حداد

حبوبة حداد

١٨٩٧ - ١٩٥٧

في خاطري تلك السمراء الحلوة تقبل على المريجات صديقة اسرة زائرة وزميلة اديب رفيق السياق ، في حقبـــة ازدهر فيها الأدب ونشطت القرائح ، فمن صالونات ادبية ، الى مجلات ، أكثرها نسائية، تعنى بمشا كل الفكر والوطن وحرية هذا الوطن .

في خاطري حبوبة حـــداد الحلوة السمراء ، وفي عينيها ما وسع مدى التوق من شمول التعبير عن قضايا الانسان: فرداً واسرة ووطناً.

في خاطري تلك الصبية تدفق حيوية وجاذبية محببة الى النفس في نكهتها السمراء ، في خاطري هي تقبل الى المريجـــات زائرة . فتفرح بها الاسرة ويرحب بها الصديق الرفيق فيلكس فارس ، ويدها على يد صغير تشد عليها فيسرع خطواته الصغـــيرة قفزاً لتنسجم مع خطوات امه المزهوة بشبابها الطلق ، انه فؤاد ، ولدها الذي سيظل ولدها « الكبير » ويظل يعمل لتنسجم خطواته مع خطواتها فلا يبقى وحـده على الدرب ، بل سيسرع الخطى وسيلحق بهـــا ، وسيظل الاثنان ، لا يفترقان في خاطر من عرفها .

كانت تقبل على المريجات زائرة وكنا نفرح بصغير غض ممتلىء عافية وحيوية نضيفه الى حلقـة الرفاق لنلعب وننطلق في لهونا ، لكن الام الخائفة على فلذتها ، احست وهي بعد في مقتبل الحياة ، انه لن يكون

لها رفيق دائم سواه ، فلم تكن لتطمئن الى تركه « يلعب مع الصغار » فكانت تبقيه الى جانبها في الصالون او في البهو او على الشرفة المتسعة . وهكذا ما كنا ننعم بفؤاد يلعب معنا ولا بقربه « مع الكبار » لانه كان يمنع علينا البقاء مع « الناس » .

وهكذا ظلت حبوبة حداد في خاطري تلك السمراء الحلوة تقبل على المريجات زائرة والى جانبها صغير بدين يقفز قفزاً ليظل منسجماً مع خطواتها ، وظلت تلك الزائرة المحببة التي تغادر المريجات فترافقها الاسرة الى محطة القطار وفي هذه الرفقة الى المحطة كان يسمح للصغار بالذهاب مع « الناس » برعاية آنسة مسؤولة .

للحياة يد تنزل بها احياناً على سرب من الخلان والحميمين فتدور في جميع الاتجاهات دافعة بافراد السرب الى حيث تمر فيتفرق الشمل ويتيه السرب .

هكذا بدا لي بالنسبة لحبوبة حداد ، اذ لم اعد اراها في بيتنا ولم اعد ارى بين افراد اسرتنا حتى عمي فيلكس لسنين طوال ويبدو ان مجاري الحياة دفعته الى حلب .

لم اعد ارى حبوبة حداد اياماً وسنين . ولقيتها يوماً ـ بعد ان تزوجتُ ـ في محطة الاذاعة حيث كنت على موعد مع المذياع .

فصار لحبوبة حداد في خاطري ذكرى جديدة محببة ايضاً وهي حميمة كذلك .

حبوبة كانت تحب الناس .

فما زرت حبوبة مرة الا وشاهدت على مائدتها سرباً من رفاق او اصدقاء فؤاد ـ فؤاد الصغير البدين الذي اضحى فتى اسمر نحيلا ـ اصدقاء فؤاد الذين كانوا على موعد في كل ليلة تقريباً مع « كأس » عند

حبوبة .

ومن منا لا يذكر حبوبة في اجواء محطة الاذاعة .

ومن منا لا يذكر صوت حبوبة على موجات الاثير .

فمن سلسلة احاديثها عن بيروت في تقاليدها وعاداتها منذ ١٥٠ سنة الى حكاياتها الطريفة للصغار ـ وقد فتحت هي الطريق لهذا النوع من الادب في حكايات الصغار ، حيث كانت عاطفتها تختلج حساً من وراء المذياع اذ كانت تنادي الصغار باسمائهم وتداعب الكبار من اسرة هؤلاء الصغار في ضحكة عذبة حلوة ، ونكتة ظريفة ، فيها نكهة الفهم والظرف ، فتتجاوب معها اختلاجات صادقة عفوية بريئة من قلوب الصغار واهلهم ، وهكذا نشأت بينهم وبين « الحاكية » وشائج ألفة ومحبة وثقة ، بحيث استوحش الصغار وبكى الكبار يوم سكت هذا الصوت ذو الغنة الحلوة ولم يعد يتوجه الى الصغار والكبار من محطة الاذاعة .

وكانت لحكاياتها فوائد غير تلك التي كانت ترمي الى تسلية الصغار رغم ما كانت تختاره من حكايات توجيهية وخلقية . كان لحكاياتها فائدة اغناء الصغار بالمفردات البسيطة الصحيحة ، لانها كانت تضع حكاياتها بلغة تتآلف فيها الفصحى والعامية .

اما سيرتها ، فسيرة اكثر من واحدة شاءت ان يكون لها كيان كريم ووجود في الحياة ، في خط الحياة لا في هامشها .

ولدت في الباروك في ١٥ اذار سنة ١٨٩٧ وتعلمت في جامعة بيروت الاميركية وقد تخصصت في الاقتصاد والسياسة .

وقد قال موريس باريس في كتابه « تحقيق في بلاد الشرق » حيث تحدث عن رحلته في بلدان الشرق هذه انه فوجىء في بلدة

الباروك التي زارها بعد عاليه وصوفر وعين زحلتا ، مفاجئة حلوة اذ صادف صبية بعمر الزهور تلقي امامه خطبة جميلة اثارت اعجابه وكان ذلك في سنة ١٩١٣ .

وفي عام ١٩١٤ تزوجت من احد انسبائها بركات حداد ورزقت منه ولداً عام ١٩١٥ وانفصلت عنـــه سنة ١٩٢٠ حيث سافرت الى باريس والولايات المتحدة في جولة استمرت سنتين .

وفي سنة ١٩٢٠ وفي باريس التقى موريس باريس هـــذه الصبية الصغيرة التي كانت قد اصبحت شابة جميلة الطلعة ذات اطلالة رائعة ، لقد كانت هي اياها حبوبة حداد ونشأت بينهما صداقة فكر وادب .

فاقترحت عليه انشاء مجلة نسائية فشجعها كثيراً على تحقيق هـــذه الفكرة وهكذا انشأت في باريس مجلتها « الحياة الجديدة » التي رئس تحريرها انطون فرح .

ثم سافرت الى الولايات المتحدة .

وهناك تعرفت الى جبران خليل جبران يوم اشتركت بالخطابة في حفلة كان من بين المتكلمين فيها .

وقد تحدثت كثيراً عن هذه اللقيا بين اصدقائها ، قالت انها كانت جد خائفة ووجلة من اعتلاء منبر يعتليه جبران خليل جبران اذ كانت تتخيله متكبراً متشائماً عبوسا ، مهمل المظهر ، واذ بهـــا تفاجأ برؤية شاب انيق ضحوك انيس ، فلم تستطع ان تخفي دهشتها وسألته بلهجة المستغرب المفاجأ مفاجأة سارة :

ــ أأنت جبران ؟

ففهم لهجة السؤال وضحك كثيراً ، ونشأت بينهما ايضـــاً صداقة صادقة ظلا بعدها يتراسلان حتى توفي جبران .

وبعد عودتهـا الى بيروت تابعت اصدار مجلة « الحيـاة الجديدة » وظلت تصدرها حتى عام ١٩٢٩ .

وكانت من النساء القليلات اللواتي انبرين للشؤون السياسية بصورة سافرة بحيث لوحقت من قبل السلطـات ايام الانتداب بسبب مقـال هاجمت فيه الحاكم كيلا باسلوب فيه الكثير من السخرية ، شأنها في كل ما كانت تكتبه في زاوية « رجالات اليوم » .

واثناء رحلتها الى اوروبا زارت زعمـاء من الاقطـار العربية ومن لبنان كانوا منفيين في اجاكسيو وهم محمد محسن ، واسماعيل الشافعي وانطون فرح وسعدالله الحويك وشريف النعماني واليـاس الشويري .

واول عدد اصدرته في بيروت، بعد عودتها من رحلتها عام ١٩٢١ استهلته بهذه الكلمة :

« سلام عليك يا وطن الاجداد وارض الاباء .

« سلام على ارزك الباسق وجبالك الشامخـة وينابيعك العذبـة ، وسكانك الذين نبت بي عنهم دواعي الهجرة فلم ازل اعاني شوقاً اليك واليهم حتى :

عدنا وكانت اليك عودتنا   يا وطناً لم يغب عن الفكر

ثم قالت :

« كنت انشأت مجلة في دار الهجرة دعوتها « الحياة الجديدة » وما اشرقت حتى غربت ولكن هي حبة الحنطة يجب ان تموت لتحيى نامية مثمرة ــ وها هي مجلتي التي انشأتها قبلاً عادت الى الظهور وجئت ازفها الى عالم الصحافة راجية من اخواتها العطف والتنشيط .

« لقد ترددت في ان اقدم على هذا العمل الشاق ووقفت بين ان اشرع لواء مجلتي بين الوية اخواتهـا لعلمي بما يكتنف عملي هذا من

الصعوبات او بين ان اطويه ولكن عدت فأنست من نصراء الادب تشجيعاً - فمشيت - ومن وراء قصدي اخوان واخوات شجعوني وحببوا الي الجهاد في سبيل ابنة بلادي التي هي مصدر الرقي والنور والعلم .

« ولقد دعوت مجلتي هذه « الحياة الجديدة » متفائلة بالحياة الجديدة للبنان والنهوض به من الوهدة التي القته فيها ويلات الازمنة ، فجعلتها مجلة عامة تعنى بما يخص المرأة اولا ثم تلمّ بالمباحث الفنية والادبية وبكثير من المواضيع العامة المطلقة - ولي الامل ان تروق لدى قرائي واني لمعترفة بوعورة المسلك انما الميل الى الخدمة والعزيمة على النشاط يكللان عملي بالنجاح ان شاء الله » .

وقد كانت تصدر في تلك الحقبة مجلات نسائية اخرى لم تقلّ عن « الحياة الجديدة » شأناً وقيمة منها « المرأة الجديدة » لصاحبتها جوليا طعمه دمشقية و « مينرفا » لماري يني و « العروس الجديدة » لماري عجمي و « الفجر » لنجلا ابي اللمع و « فتاة الشرق » للبيبة هاشم .

وكان لحبوبة حداد صالونها الادبي كما كان لجوليا طعمه دمشقية . وقد بقي صالونها في الحقبة الواقعة بين ١٩٢٠ و ١٩٣٠ ملتقى كبار الشخصيات الادبية والسياسية منها امين تقي الدين وشبلي الملاط ورامز سركيس وجبرائيل نصار واسعد عقل وسعيد فاضل عقل ، وجرجي باز ، وجبران التويني ، وامين نخله ، وامين الريحاني ، وطانيوس عبده ، وحبيب باشا السعد ، وصبحي بك بركات ، وكامل حميه ، وميشال زكور ، ويوسف ابراهيم يزبك ، وعلي ناصر الدين ، وداوود بركات ، وفيلكس فارس، والياس ابوشبكة ، وصلاح بيهم ،

ومن الاقطار المجاورة الرصافي ، والشرقاوي ، واحمد شوقي ، وحافظ ابراهيم ، وسامي الكيلاني ، وجميل مردم وسواهم وسواهم .

وقد كان صالونها من العوامل التي جعلت اجتماع الادباء والاديبات من محمديين ومسيحيين ممكناً وغير معرض للنقد ، اذ كانت تؤمـه اديبات معروفات كسلمى صائغ ونجلا ابي اللمع ، وماري يني ، وجوليا طعمه صاحبة الصالون الآخر وسواهن من الرعيل النسائي الاول .

وكان المحامي حبيب فارس مضطهداً وملاحقاً من المتصرفية ايام السيطرة التركية . فأختبأ عندها وكان يدبج مقالاته النارية التي كان ينشرها في النصير » في بيتها .

يقال ان لها مؤلفين « نفثات الافكار » « ودموع الفجر » لم نعثر عليها .

وكانت هي تحدثني عن كتاب وضعته يتناول تقاليد وعادات بيروت منذ ١٥٠ سنة وهو موضوع كانت تعالجه في سلسلة احاديث من الاذاعة لا ادري اذا كانت طبعته .

واعرف منها شخصياً ايضاً انها كانت تضع مذكراتها ولا ادري اذا هي اتمتها .

وهنا لا يمكنني الا ان انوه بامر والغصة تشد على قلبي . فحبوبة حداد التي وهبت حياتها للناس ، وحبوبة حداد التي وقفت المواقف الجريئة في الحقل السياسي ، وحبوبة حداد التي كانت نجمة الصالونات المتألقة ، حبوبة حداد التي انكفأت واغلقت اجواءها دون جميع الناس لتكون كلها في جو صداقة اختارتها فوهبتها كل شيء ، وشاءت ان تكون لها المخلوقة الوفية ، الصادقة الطائعة لكل ما تفرضه هذه الصداقات من استئثار وانكماش ، حبوبة حداد هذه ليس لها بيتاً

نستطيع ان نجد فيه اثارها ومخطوطاتها وصورها .

يبدو ان هذا كله قد وضع في صندوق خشبي وارسل تارة الى هنا وتارة الى هناك - ولم يعد في البيت الذي وهبت فيه قلبها ويناعها وألفتها ، لم يعد في هذا البيت لحبوبة من اثر !!! حتى ولا رسمها ! هكذا قيل لي !!

اما حكاية حبوبة حداد ووحيدها فؤاد حداد الذي قتل على الصورة المفجعة التي نعرفها جميعاً يوم خطف ابان حوادث ١٩٥٨ ، والذي شاء القدر ان يوفر على قلب امه ، حبوبة ؛ تلك الفاجعة القتالة فتوفاها قبله بعشرة شهور .

اما حكاية حبوبة حداد ووحيدها فؤاد فلا اصدق مما قاله فيها فاضل سعيد عقل في كتابه « فؤاد حداد » :

« قصة فؤاد حداد مع امه لا تضاهيها قصة ! ولا يستطيع احد ان يكتبها او يرويها او ان يكتشف اسرار هذا الولد المولع بامه وثكل الوالدة المدلهة .

« كأنه مربوط برحمها ، مشدود الى كل شريان من شرايينها . نذر نفسه لراحتها ولرفاهيتها ، حتى لا تصعد من بين شفتيها (كما كانت تهم ان تتسرب من بين شفتيه) ، كلمة « لو » .

« تحمل نزوات غضبها البريء العارض واستشاطة فوراتها (لدى ان ترى ما لا يرضيها مثلاً في ترتيب اثاث البيت ، او اذا تأخر فؤاد في المجيء ظهراً الى البيت فلا تأكل الا بعد وصوله ، او اذا طالت سهرته) فيتقبل كل ما يصدر عنها ، ليس كالابن فقط ، بل كالخادم !

وفي الواقع كان خادماً لها .

« يقوم مقامها في المطبخ ، ويهيء طاولة الطعام ، ويدبر اصناف

المأكولات في صحنها بذوق وعناية ، فيجرد السمكة من حسكاتها ، والدجاجة من عظامها ، ولا يقدم لها من كل صنف الا اللب والقلب .

« كل شيء طري ، ندي ، شهي ، لذيذ ، يجب ان يكون لها ، ويجب ان تقدمه يداه اليها بشغف وسرعة . وهكذا عودها فتحولت رغبته لارضائها الى امر فرض عليه .

« كان يعطف عليها عطفاً لا كال بعده .

« فاذا ما طلب عطشها صفيحة من الثلج نزع اللقمة من امام فمه وسارع الى البراد ، او اذا احتاجت الى دواء سقاها اياه من يد الى فم ، او الى فنجان قهوة مرّه كان البن يغلي بين جمرات موقدة النحاس .

« واذا ما استلقت على مقعدها الوثير بعد الطعام لم يستغرب هو ان ترهقه طلباتها المتلاحقة بتلبية تلك الطلبات فلا يعرف للقيلولة مذاقا .

« واذا تضايقت من برنامج في الراديو وكان هو مرتاحاً اليه اقفل الراديو بيديه وشارك امه الشعور بالتضايق .

« واذا افتقرت الى مصادر لكتابة قصص اطفالها اقام الدنيا واقعدها حتى يجد لها ضالتها كما تريد بالحرف .

« وانتهى الى ان صار يفهم ارادتها من غير ان تعبّر عنها بالكلام او الاشارة .

« حب فؤاد لامه يشبه التعبد .

«وكم مرة ازعجنا بعد حضوره سهراتنا وقاطع جلساتنا لانه وعد حبوبة بان يكون في البيت باكراً .

« كان فؤاد يكذب ليرضي امه .

« كان كله لها ، لا يصرف درهماً من جيبه الا اذا كان في صرفه مرضاة لها .

« كان يضحي باصدقائه – وما اوفاه لاصدقائه ! – حتى لا يكدرها .

« كان عائشاً بها ولها ، فان مرضت مرض بعد ان يشفيها ، واذا ضحكت كان عنده عيد كبير !

« كانت شخصيته مرهونة لها . فهي سيدته .

« وكثيراً ما وجه مقالاته الانيقة « اليك ، يا سيدتي ! »

« سيدته بالمعنى الاقطاعي والديني معاً : سيدة فكره ووجوده وامله .

« السيدة التي تكيّف وتأمر .

« وأوامرها على قلبه مثل العسل . وأشهى مشتهاه ان تأمر .

« وارتاحت حبوبة الى وضع فؤاد ، وكانت سيدة بالفعل .

اجل كان فؤاد حداد الفتى الاسمر النحيل صاحب الاسلوب الفريد في نقده ونقداته ، الموله بامه كله حنان وكله عطاء وكله انتباه وتنبه لارضائها واملاء اي فراغ في نفسها . هكذا كان فؤاد حداد الكاتب اللاذع انعم وارق ما عرف انسان !

وبما انني لم اوفق بوجود شيء من مخطوطاتها او اثارها في ما كان بيتها ، قصدت دار الكتب حيث عثرت على مجموعة من مجلتها « الحياة الجديدة » .

وها انا انقل مقالا من سلسلة مقالات عنوانها :

« سنتان في المهجر بين باريس ونيويورك ومصر . »

تحدثنا فيه عن رحلتها الى خارج لبنـــان ، انقله الى القراء لانه يروي لنا حقبة من حياة الـكاتبة قالت :

« في العالمين الغربي والاميركي قضيت سنتين .

« تجلت بهما امـــام ناظري كل اسرار الرقي ، ومداخل ابواب النجاح .

« علمت ان المعارف تتجمع ، والمعلومات تزداد بالاختبارات وان العلم هو مجموعة تجارب فعملت بمـــا علمت . رحلت ودرست واختبرت .

« مررت بالمدن العظمى كمرسيليـــا وباريس ، وقضيت معظم رحلتي في مدينة الجهاد والنشاط والقوة ، في نيـــورك التي تتزاحم فيها المجهودات الانسانية والتي تحمل المرأة القسم الكبير فيها على منكبيها ، وتنيره باشعة يمينها ، وعمل يديها .

« ومررت اثناء عودتي بمدينة الفراعنة التاريخية وفلسطين الارض المقدسة !

« وما مصر وفلسطين الا قطع من ارض تجلت على ماضيها العظمة ، ثم غاب نجمها ، ثم عاد يتألق ضئيلاً في ظلمة العالم الشرقي .

« لقد زرت اشهر مدن العالم .

« المدن التي تمثل المدنيتين : المدنية الحديثـــة ، والمدنية القديمة واني لاصدق قارئاتي اذا قلت ان جميع المدنيـــات والاثريات لم تنسني الذي به درجت والبلاد التي احببت وتعشقت ،

« لم تنسني لبنان الجميل بجباله ووهاده وابنائه .

« لم تنسني ابناء وطني الذين تمـــيزوا بالعواطف الكبيرة والنبوغ اللامع في كل ارض هاجروا اليها وتحت اي سماء تظللوا بها .

« وها انذا بعد سياحتي اقف اليوم خـــاشعة في موطن الارز ناظرة اليه بعاطفة – عاطفة لا تشابه العواطف التي رفعت عيني للنظر الى برج ايفل وجسر بروكلن .

« عاطفة اين لقلمي الضعيف وبياني العاجز ان يحددها .

« اقف لاصف لاخواتي اللبنانيات والسوريات ملامح مـا شهدت وسمعت وعرفت . »

ثم تحدثنا عن رأيها في المرأتين الفرنسوية والامــيركانية ، عن ميزتهما وصفاتهما وعما يصح للمرأة « الشرقية » ان تقتبسه عنهما وعن رأيها في المرأة السورية في وطنهـــا والمهجر الى ان تنتهي الى هذه الخلاصة :

« هذا ما اسطره عما رأيته في اخواتي الشرقيـــات والغربيات ، واني استنهض الان همة اخواتي وقد فتحت في وجـــوههن مدارس نبلت غايتها وسمت مقاصدها فهدتهن الى قويم الطريق وغيرت فيهن العادات الخرافية القديمة وافهمتهن اكثر فـــاكثر من معاني الحياة ، ولذلك اراهن يسرن في الطريق السوي ناشطات باسمات الى المستقبل، واثقات من انهن قد خلعن اردية الجهل واقلعن عن السفاسف واضفن الى ما يتمسكن به من العادات الشرقية النبيلة علماً جديداً وادبـــاً غزيرا فالى الامام وتجددن مع الوطن الذي يتجدد . »

يلاحظ القاريء هنا ما لاحظته عند الكثيرات من الرعيل الاول اللواتي رافقن خبوبة حـداد او رافقتهن ، وهو كثرة استعمال كلمة « الشرق » في صدد الصفـــة كقولهن : المرأة الشرقية ، العادات الشرقية ، في بلادنا الشرقيـــة ، كما يلاحظ تحدثهن عن المرأة اللبنانية والمرأة السورية والمرأة الشرقية الخ ...

وانا اعتقد ان مرد ذلك يعود الى كون الاقطار « الشرقية » جميعها كانت تقع تحت سيطرة امبراطورية واحدة هي الامبراطورية العثمانية ، لذلك بقيت الكثيرات من الكاتبات كما بقي الكثيرون من الكتاب يتحدثون عن لبنان وسوريا والبلاد الشرقية وكأنهم يتحدثون عن بلادهم بالذات وقد استمر هذا العرف وقتاً حتى بعد زوال سيطرة الامبراطورية العثمانية .

وكثيراً ما صادفت عند جوليا طعمه دمشقية ، وعفيفة كرم ، ومي زيادة وحبوبة حداد وسلمى صائغ مقاطع عن المرأة السورية ومشاكلها وقضاياها ، كانت تنتقل في الحال الى التحدث عن هذه المشاكل بالنسبة الى المرأة الشرقية او المرأة اللبنانية سواء بسواء .

وراحت تتابع حديثها عن رحلتها بعنوان « سنتان في المهجر » فتتحدث عن المرأة وعن المدارس والاعياد الوطنية والتقاليد .

وفي سلسلة مقالاتها في زاوية « وكان صباح وكان مساء » التي تتحدث فيها عن الحرب الكبرى الاولى وزيولها وما وقع في هذا الجزء من العالم من خلق مناطق نفوذ بين الحلفاء ، وحيث نعثر لها على اراء لسنا في مجال بحثها ، انقل هذا المقطع :

« وكانت حكاية العرش السوري !!

« والعرش في معجم اللغة سرير الملك . والعز وقوام الامر . ومن القوم رئيسهم المدبر لامورهم واما تعريفه عند الامم المتمدنة فهكذا :

« هو في عقيدة الانكليز مجموعة نواويس قديمة العهد نادرة الاثمان يجب التمسك بها والمحافظة على ما فيها من مومياء مكشرة

مرعبة ،وقد يستحسن عرض تلك الموميــاء من وقت الى آخر في السنة على الامة - حفظاً لسلامة الامبراطوريـة من جهة ، وترويعاً لاي دولة من شأنها التعرض لحرية الاسطـول - اسطولهم من جهة اخرى .

« وهو في عقيدة الفرنسويـين متحف اثري مهجور ، لا بأس من ترميم جدرانه المهدمة يوماً والحاقه ببقية متاحف باريز الشيقـة الجميلة ، على شرط ان يتضاعف بذلك مجدهم العسكري وان يظل الفرنك اخذاً بالصعود نحو العلاء .

« وهو في عقيدة الامـيركان جزيرة مملوءة بانواع الميكروب والامراض ، لا تشفع بها دولارات المتمولين ولا بعثات العلم والدين . اذن فليبق الاوقيانوس العظيم فاصلاً في ما بينها،وتمثال الحرية والبيت الابيض .

« وهو في عقيدة الالمان بارجة حربية ، مفقـودة يتحتم التفتيش عنها في المستقبل البعيد ، اما على ضفاف السين واما على شواطىء بحر المانش ثم ارجاعها الى معقلها في ميناء وللهم .

« وهو في عقيدة اليابان قدس الاقداس . من لا يدن اليه بخشوع تلتهمه السنة النيران من داخله .

« وهو في عقيدة المغفور له لينين اعطوا العالم من المبادىء الحرة كما اعطيتم .

« وهو في عقيدة موسوليني ، نصر من الله وبوارج انكلترا وفتح قريب .

« وهو في عقيدة مصطفى كمال مأوى عجزة يمكن لتركيا الفتية النشيطة الاستغناء عنه .

« وهو في عقيدة رضا خان ، بل الفرس اجمع ، كسوة وطنية مزركشة مجوهرة يجب ان يتبدل لابسهـا في كل سنتين مرة ، لا فرق ان اشتركت بالباسه اياها ايد روسية او انكليزية او افرنسية طالما – لابس – تلك الكسوة الموروثة فارسي المولد .

« وهو في عقيدة المصريين جـلاء الانكليز عن ترعة السويس والسودان .

« وهو في عقيدة العرب اسعد الله الانكليز واقصاهم مع طياراتهم ومدافعهم الجهنمية عن شبه الجزيرة .

« واما في عقيدتنا نحن ابناء هذه البقعة الصغيرة القديمة من الارض فهو لعبة العروس .

« كلنا يدرك ما لهذه اللعبة من التأثير والعـذوبة على اعصاب الاولاد وعقليتهـم المرنـة . الا يحرجـون موقف اربعـة من بينهم فيختارون اجمل البنات وجهاً واضعفهن ارادة لتمثيـل دور العروس واخرى للقيام بدور العريس ، وغيرهـا كفيـل وقسيس ، ثم تحوم الاولاد بشكل حلقات من حول العروس فيستبدلون بملابسها القصيرة ملابس فضفاضة مستعارة ، ويلطخون بشرة وجههـا الناعمة بالحبر الاحمر ومسحوق الارز : وتتهافت البنات » .

وتستمر في هذا التشبيه الطريف الى ان تقول :

« ولعبة العروس ، او بالحري العرش ، لعبة رياضية فخمة المظاهر والاشكال ، وان كل ما يحيط بها اصطناعياً قابـلاً للتقلب والزوال ، وهل اجمل من تتويج ملك على بلاد متجزئة المقاطعات متبلبلة اللهجة والسكان ، شنجت اعصاب ابنائها المذابح والثورات ، ونخرت عظامها الدعايات الاجنبية والوشايات تهالكاً بطريق بلادالهند وجزيرة العرب

وبلاد الافغان والعجم .

« وهل الطف من – تعيين – برلمان باشارة العرش على الامة ليكون اعضاؤه كمجموعة الاسطوانات الغنائية السوداء كلاً منها مختلف اللحن متباين الانشاد .

« وهل ألطف من ... وهل ألطف ... وهل ألطف من تسمية وزير عدلية ، والعدل ضائع بين القانون التركي والافرنسي والكنسي وبين سيول القرارات التي تمطرها السلطات العليا يومياً في البلاد ؟ »

ان ما اقتطفناه من هذا المقال لدليل واضح على سعة اطلاع الكاتبة على الشؤون السياسية العالمية والمحلية – بصرف النظر عن ارائها الخاصة في بعض الاحايين – قلّ ان حازت على مثله الكاتبات اللواتي اتناول سيرتهن في هذا الكتاب ، بالاضافة الى اسلوبها اللاذع، الرشيق الايمائة .

لقد نشر هذا المقال او على الاصح هذه الحلقة من سلسلة « وكان صباح وكان مساء » في الجزء العاشر السنة الرابعة ، عدد ايار سنة ١٩٢٧ في مجلة « الحياة الجديدة » .

اما كيف انتهت حبوبة حداد ، فاني ارى ان انقل ايضاً هذا المقطع من كتاب فاضل سعيد عقل « فؤاد حداد » قال :

« الحقيقة ان القدر نفسه احتار في الاختيار ، فاصيب فؤاد بمرض عضال قبل وفاة امه بنيف وستتين (وقد توفيت في ٨ كانون الاول سنة ١٩٥٧ ، وهي من مواليد الباروك في ١٥ آذار ١٨٩٧) ونجا من الموت باعجوبة ، ليطيل الله في عمر الام قليلاً فلا تشهد مصرع الابن بل يرفع عنها الصليب ليضعه صليباً ثانياً على اكتاف فؤاد . »

الا ان فؤاد فرح بامه يوم رافقها الى القصر الجمهوري ليشهد حفلة

تعليق وسام الارز على صدرها من قبل فخامة الرئيس كميـــل شمعون ولما لبثت ان توفيت بعد اشهر .

ولما توفيت حبوبة حداد لحق بها فؤاد في اقل من سنة .



سلوى محمصاني مومنه

سلوى محمصاني مومنه

١٩٠٨ - ١٩٥٧

ان اتحدث عن اديبة عايشتها،ورافقت نشاطها في الميدان النسائي، ولاحظت ومضات التمعت في اجواء مجتمعهـــا من اضواء فكرها الانساني النير، ونشأت بيني وبينها عاطفة تقدير ومحبة وتفاهم صامت متبادل ، ترفـّع عن المبتذل في دجل التزلف ، ان اتحدث عن واحدة من رائدات المجتمع احببتها واجتذبتني فيهـــا رقة لا تكلف فيها ولا زيف ، وقربتني منها عاطفة احترام انتزعها من صمـــيم نفسي ايمانها الصميمي ايضاً بالقيم الحقيقية وسبر غور النفس البشرية في تفاعلاتهـــا العفوية الصادقة بحيث احسستهـــا ، في كل ما عملت او كتبت « السيكولوجية » البارعة الفاهمة العقد النفيسة في الكائن الانسان ، من طفل ترعاه في دور نشأته ، الى الزوج ترافقه في سيـــاق الحياة ، واعية ، عطوفة ، محبة ومحببة لا تفـاجيء بالردات تأتي في اية من الحالات ، فلا تقسو ، فمن طبعهـــا الانصاف والوفاء لكل حسنة ومن شيمها العفو المحب غير المتعالي، ان اكتب عن هذه الانسانة التي عرفت واحببت ، يثير في نفسي غصصاً وتحرقاً على من كانت في ينباعها قنديلاً بين القناديل التي انارت فدلت التائهين على الدروب . حبذا لو بقيت لنا في عمر مديد فظل مجتمعها يفيد من عطائها وبذلها وحبها ، ولما فجع زوج برفيقة لا احب ولا اغلى ولا بقي في استغراب ووحشة مضنية .

زرته اجل امس ، لاطلب منه بعض المعلومات تعوزني في دراستي هذه ،فيا للوجوم والصمت والتخيلات تثقل النفس وتضغط على القلب ، طيف سلوى يروح ويجيء في البهو الفسيح ، يطل ويختبيء من ابواب القاعات ، والكلمات تتثاقل بالغصص ... « لقد رفعتني من الحضيض » قال وخنقته الحسرة ... انها لهفة المتفجع الذي يود ان يضع اعزاء فقدوا في الاوج من مطرح الذكريات .

سيرتها وقصة حياتها ؟

ولدت في بيروت سنة ١٩٠٨ من بيت كريم وترعرعت في بيئة احبت العلم وانطلقت في مجالات الرقي .

تعلمت في كلية المقاصد الاسلامية للبنات وكلية مار يوسف الفرنسية للبنات ، ودرست العربية على العلامة الشيخ مصطفى الغلاييني .

مارست مهنة التعليم فدرّست اللغة العربية في كلية المقاصد الاسلامية للبنات مدة ثلاث عشرة سنة .

وقد احست باكراً برغبة في الكتابة . واول ما كتبت ونشرت في مجلة « المرأة الجديدة » لصاحبتها المرحومة جوليا طعمه دمشقية . فكانت صغيرة الرعيل النسوي الاول الذي ضم ماري يني وسلمى صائغ وحبوبة حداد ونجلا ابي اللمع وغيرهن وكتبت في مجلة السياسة المصرية تحت اسم مستعار . تزوجت سنة ١٩٤١ من السيد محمد عزيز مومنة صاحب المدرسة العزيزية التي كانت له فيها خير معاون ورفيق .

ولم يرزقا الاولاد ولكنها احبت الاطفال كثيراً وقد برعت في تدبيج الحكايات لهم وينعكس حبها للصغار في هذه الفكرة التي عبرت عنها في قصة « الصبي » من مجموعتها (مع الحياة) :

« ما أرى القلوب عند الصغار الا نـــماذج من قلوب الكبار ... بعضها كالزجاج اذا كسر لا يلتئم وبعضهــا ككرة المطاط ... فهي تعود الى شكلها الاول مهما ضغطنا عليها »

وفي هذا القول في مكان اخر من القصة ذاتها :

« ونظر الي بعينيه الخضراوين وقد التمع فيهما بريق كسفه الدمع ، ثم ادار وجهه ولم يجب ، فامسكت بوجهه وادرته الي ، فرفع يديــه واخفى وجهه ، ثم تملص مني نافراً وكانه صعب عليه ان يطلع الناس على ما لم يستطع اخفاءه من الفقر »

وقد كانت محللة وعميقة التفكير وكانت منصفة وغفورة كما نرى في هذا القول :

« الانسان الشرير ليس الا انساناً اهمله المجتمع فانحدر الى الجريمـة وضاعت انسانيته »

وقولها في القصة : « شعلة تنطفىء » من مجموعتها (مع الحياة) .

« ان شهوة المال في الناس كثيراً مــا تكون سبباً في انحرافهم عن العدل ، ومضيعة لانسانيتهم في مجاهل الاثم »

« من الصداقات ما هي كاللهب تنطفىء بعد اشتعال... ومنها ما هي كالسراب تراه ولكن ليس له وجود (المغدورة)

ساهمت في نشاط المرأة في جمعيات عدة اخصها جامعة نساء لبنان حيث شغلت منصب امينة السر ونائبـــة الرئيسة ، وكانت في الهيئة الادارية لجامعة الهيئات النسائية وساهمت في عدة مؤتمرات ممثـــلة المرأة اللبنانية ، وانتدبت لتمثيل لبنان اكثر من مرة في اجتماعــات حلقة الدراسات التربوية والاجتماعية للشرق الاوسط .

اما ما نشر لها فكتاب عنوانه « مع الحياة » وهو مجموعة قصص

اجتماعية وتربوية وانسانية شاءت ان تعبر فيها عن ارائها ونظرتها للحياة عن طريق القصة القصيرة فأتى منها ما هو جميل لطيف ومنها بالطبع ما خلا من اسلوب القصة وغلب عليه طابع السرد كما سنرى في ما بعد .

وفي ادراجها بقيت مجموعة اخرى لم تنجز فلم تطبع وكانت تهيئها للنشر بعنوان « عبر الدروب »

هذه بعض من اقوالها :

« ان امضّ الالام مـــا نشب في النفوس من قريب او نسيب ، « الاخوان » .

وقولهـــا : « كثيرون هم الذين يتربعون على عروش التبجيل والتعظيم ، ولو انصفوا لحكم عليهم باقصى العقوبات « وفي الضحية »: تتآزر الغفلة مع الاثم احياناً في جر الضحايا الى مصيرهـا المحتوم » .

اما الطابع الغالب على اسلوبها فهوّ طابع ادخال الخواطر الخاصة في قالب قصة واستخراج العبرة والخروج دوماً بعد تحليل ، الى نتيجة يحس فيهـا القارىء الكثير من العطف على صغار او ضحايا مكيدة واستعداداً للصفح عن اشرار او طامعين بمغانم ، وذلك بصرف النظر عن شروط القصة من حيث الاسلوب او العقدة او سياق الحوادث .

وما تفلتت من قيود هذا الطابع في قصتها ، الا في القليل كالحكاية الظريفة وعنوانها : « اطلت من الشباك »

وها كم بعض مقاطع من هذه القصة ومن سواها اثباتاً لاسلوبهـا هذا :

« لماذا يمتد بي الليل اليوم ، ويحوم فوق رأسي سهاد يغمر عيني وقلبي ? لماذا ? اني اريد الراحة والنوم . لا الذكرى ، وهذه الورقة

– رسالتها – التي اصبحت صفراء من مدامعي ولطول ما امسكت بها، مالي احملها بيدي الان ؟ وقد حفظت ما بها لكثرة ما قرأته . ومع ذلك ففي كل مرة اقرأه ينفتح امامي باب جديد لمعنى جديد وعاطفة جديدة . او هكذا يخيل الي ...

« واني لاراها هي – صاحبة الرسالة وقد أطلت من الشباك ... نعم هي ... فكلنا نعرف هذه الطلعة الفاتنة ... أطلت علينا ، فغدا وجهها الجميل ، بين اغصان اللبلاب المتسلقة على جدران بيتها الصغير ، كانها عروس الرياحين المتفتحة البهية »

انها حكاية فتى في مقتبل العمر تستحوذ على مشاعره وتتراقص في خاطره اطياف فتاة احب فما رضي ان يصدق فيها اقوال واشين. وتصوره الكاتبة وهو يمر في حالات الغيرة والقلق ثم في حالات الهدوء والسعادة متى كان الى قرب محبوبته ، و متى علقت عيناه الحالمتان على جدران البيت ونوافذه ، تقول على لسان الفتى :

« كان البيت ساكناً ، ينام بين خضرة اللبلاب . وكان معتماً الا من ضوء خفيف يبصبص من احدى غرفه .

« اسندت رأسي الى الجدران واخذت افكر مستغرباً حالي ومتعجباً من نفسي ، اقف وحيداً وفي مثل هذا الوقت ، لغاية غامضة ومتخفية في اعماق روحي »

وفي حالات اضطرابه بعد قلق وظنون :

« فنظرت الي نظرة رقيقة حالمة ، وابتسمت ابتسامة غامضة حنون ، عصفت بقلبي ، ودار لها رأسي ، حتى نسيت ان اسلم على بقية الرفاق الذين كانوا قد سبقونا الى هناك »

وفي مكان اخر :

« وطالت سهرتنا، وحين رجعت الى غرفتي ، استلقيت على سريري واغمضت عيني على صورتها ، وانا استعيد في خيالي كل لفظة تفوهت بها ، وكل نظرة ، وكل ضحكة او ابتسامة منها استعيد ذلك لاتملىء بتلك اللذة ، استمرىء طعم سحرها واستشعر قوتها وروعتها .

وفي حالات الالم والحزن .

« فظللتني غيمة سوداء من الكآبة . وتعبت في موقفي ساهما شاردا . ورأيتها تبتسم للكثيرين ، ثم تركت الشباك وغابت في داخل البيت . فبدا لي الملعب موحشاً ، ولم اطق البقاء فيه طويلاً »

ولا بأس في المقطع التالي بفنها في اخراج الصورة الحلوة لصبية لعوب ، تقبل على الحياة ضاحكة زاهية وفتى يتملىء من السعادة في اشراقة الحياة وطبيعة ضاحكة تحتضن هذه السعادة :

« فضحكت وتلألأت عيناها بحنان آسر ، ثم نهضت واخذت تقطف بعض الازهار البرية ، وانا اتبعها واقطف لها منها . ونحن تارة نركض ونلعب « باللقيطة » وتارة نغني ، حتى توغلنا في طرف الجبل ، ووصلنا الى نبع صاف تفور امواهه ، وتترقرق على حصى لامعة بيضاء ، ثم تنسكب كشلال صغير ينحدر على صخور منضدة ، يتصل عندها بواد اغنّ قريب حيث يجري الماء غديرا . »

وفي قصتها « الصبي » قالت :

قلت لصاحبتي « سمية » :

– اني لاشفق على الشيخ باكياً .

قالت :

– بل ان الطفل الباكي ادعى الى الاشفاق .

قلت :

– ولكن الطفل يلهو فينسى الالم وشيكاً .

قالت :

– بل يبقى في اعماق نفسه – كما قال بعضهم – كالنقش في الحجر.

« وانه لمن الجريمة ايلام الطفل ، لانه لين العريكة طري القلب ، تنمو مشاعره ، وتتهيأ قواه ، وتتكون شخصيته حسبما يلاقي بحداثته من الاحداث .

« فنظرت سمية الى اختها برهة ثم تابعت حديثها تقول :

– اني سأحكي لكما قصة صبي لا يزال في نفسي منها اثر . »

وتقص هنا حكاية صبيّ صادفته في الطريق يبكي .

وتصف هنا الكاتبة دروب الاحياء التي كانت تعيش فيها وتصور لنا تصويراً دقيقاً كل ما رسخ في خيالها من هـــذه الدروب الاليفة وتلك الشوارع التي كانت الاطار لترعرعها والتي احتوت ذكرياتها . اما الصبي فكان اهله من الميسورين المتنعمين بشتى معالم الحياة الميسورة ولكنهم ما لبثوا ان خسروا مالهم وفقدوا جميـع امكاناتهم . فاضطر الصبي واخوه للعمل في بعض المؤسسات في فترة الصيف علهما يدخرا ما يمكنهما من دفع رسوم المدرسة في فصل الشتاء . وتنتهي الى توفيق الاخ الاكـبر وفشل الصغير ، اذ يحظى الكبير برب عمل يعطيه عن سعة وهو لا يعرف عن اسرة مخدومه شيئاً ، بينما يستثمر الاخراتعاب الصغير فلا يعطيه ما يكفي بحاجته ، « بل لا يكفي لشراء كتبـه المدرسية » وهو ممن كان لوالد الصغير فضل عليه .

وتنتهي قصتها على لسان والدة الطفل التي تشاء الكاتبة ان تكون صديقة الراوية التي زارتها فتقول :

« فخاب هذا الطفل بما أُمّل ، وفشل فيما سعى ، ولم ينـل جزاء جهده وتعبه وامانيه في العمل .

« لقد كان فخورا بان يشتغل ليساعد والده في المصروف . فـاذا به يتقاضى اجرا لا يفي بحاجته ، بـل لا يكفي لشراء الكتب المدرسية .

« وحينما رأيته يدخل البيت مساء ، وهو يبكي ، ارتعت للامر وسألته عن السبب فاعطاني المبلغ واحاطني بذراعيه ، وبلل وجهي بدموعه . ولم ينفع لاشاعة الفرح في قلبه ، مـــا احطته به من حنو وتشجيع ، وما أسمعه اياه ابوه من كلام يطيب به خاطره ويعده بان يدفع له هو كل ما يريد . فقد كان يجيب اباه :

– انما انا اريد ان اساعدك ، اريد ان اخفف عنك التعب حتى تتحسن صحتك .

« هنا ارتعشت اجفان مديحة (امه) وارتجف صوتها ، ولكنها تمالكت بعد برهة ، وتابعت حديثها تقول :

– مع العلم يا سمية بان زوجي لم يكن على وفاق مع معلم صلاح وله اياد لا تحصى من المساعدات على معلم وديع الصغير .

« هنا صمتت سمية حزينة ، ونظرت الى بعيد ، كانها تتأمل وجه الطفل الخائب ، وبعد برهة تمتمت :

– ارجو ان يكون هذا الطفل في كبره احسن حظاً . فلا يضيع حقه بين الذين يأكلون اموال الناس بالباطل . »

في قصتها هذه كثير من الامومة العطوفة الحانية على نفوس الصغار وان لم تنجب الاولاد . فاسلوبها في هذه القصة هو صورة صادقة شخصيتها الوادعة الغنية بالعاطفة الانسانية .

قلت في مكان اخر ان اسلوب السرد قد غلب بعض الاحيان على ماكتبت كما نرى في « كبش المحرقه » حيث تروي حكاية مؤسسة خيريه دخلت على جوها ذات يوم رئيسة جديدة عيّنها مدير جديد للمؤسسة .

فتصف لنا في مدخل القصة هذه المؤسسة – الشغل – وعدد التلميذات والعاملات فيه وسياق الامور في اجوائه فتقول :

« كذلك تدخل اليه التلميذات كبارا وصغارا ليتعلمن الخياطة والتطريز والحياكة ، مع العلوم الابتدائية ، على احدث الوسائل والالات. فيدفعن اجر هذه الدروس ، كل حسب قدرته المالية ، وبينهن المحتاجات اللواتي يقبل بعضهن للتعلم مجانا . ولذلك سمي « المشغل الخيري »

« فهو يصدر الالبسة القطنية والصوفية والجوارب والاشغال اليدوية البارعة الى الخارج لا سيما الاقطار العربية المجاورة وتأتيه التوصيات المتزاحمة – باجهزة العرائس وغيرها – لما اشتهرت به منتجاته من الاتقان والذوق الرفيع »

يذكر القارىء ان الكاتبة علمت العربية في كلية المقاصد الاسلامية للبنات ثلاث عشرة سنة وان هناك مشغلا خيريا لمؤسسة المقاصد الخيرية في دار الايتام الاسلامية.

فنرى ان الكاتبة تعكس بيئتها في اكثر ما تكتب ، وتصور حالات قد تكون عاشتها او لامست من عاشها .

لنعد الى قصتها .

تقول في مكان اخر :

« ان الاحوال تسير منذ عشر سنوات ، على خير مايرام مع هذه

المديرة الوديعة الحكيمة ، السيدة « صبحية » التي تتحلى بالذكاء المتقد، والخلق الكريم. فهي تعمل بامانة وجدارة واخلاص. وتوصل المشغل بنشاطها الدائب الى الازدهار والربح المتزايد . والشركة راضية بهذ معتمدة في تصريف جميع امورها داخل المؤسسة ، على هذه المديرة القديرة المحبوبة .

« حتى كان يوم حضرت الى المشغل رئيسة جديدة ، عينها المدير الجديد بمجلس الشركة وهو ذو المنصب الرفيع والخطر العظيم .

« كانت الرئيسة الجديدة ، « مدام دنيز » في العقد الخامس من العمر اجنبية المنبت واللسان ، محدودة في الذكاء متطرفة في العادات. مغرية في البسمة والحركات . خليعة في اللباس والنظرات . ليس لها اقل المام بما يدرس من العلوم والفنون في المشغل ، بل لم تكن تحسن اي علم او فن . وانما كانت وظيفتها اسلوباً ملتوياً ، ظاهره العمل وباطنه نيل راتب ضخم من مال الشركة ، اراده لها المدير الجديد » .

شاءت الكاتبة هنا ان تصف ما يجري من تحيز في الادارات والشركات ، وما يعانيه اصحاب الكفاءات من مضض في تحيز المشرفين ، وهذا واقع حقيقي في الكثير من المؤسسات والدوائر . ولكنها لم تخرج عن الاسلوب الذي اصبح « كلاسيكياً » عند كثير من الكتاب في العربية وهو الذي يدخل دوماً امرأة اجنبية « خليعة في الملابس والنظرات» لتفسد ما استقام من امور ولتلعب دور المخرب الخاطف اللقمة من افواه اصحابها والمهدم سعادة الناس .

وتستمر الكاتبة في سردها الى ان تقول، واصفة كيف كانت مدام

« دنيز » تسلك مع العاملات والتلميذات :

« وكثيراً ما كانت تجمعهن لتلقي على مسامعهن من الاحاديث ما تشمئز لها نفوس الكثيرات منهن .

« ثم اخذت تعمل على جمع الاموال منهن ، لاغراض كاذبة ، وغايات موهومة . فحيناً لاصلاح الدار ، وحيناً لعمل خيري ، واحياناً لشراء كتب او آلات حديثة لازمة لتقدمهن . ولكن المال كان ينزلق الى جيبها ، ليبقى وسيلة لمنافعها الخاصة » .

قلت ان اسلوب السرد غلب على هذه القصة وعلى بعض من مجموعتها . اذ يترتب على القاص ان يجعل اشخاص قصته يتصرفون تصرفات ويتخذون مواقف تدلل هي على صفاتهم ونفسيتهم وذهنيتهم فتغنى عندئذ القصة بالحركة ولا يستحوذ الملل على القارىء .

وتتابع الكاتبة على هذا النحو فنفهم من سياقه ان الادارة طلبت الى المديرة السابقة ان تضع تقريراً عن سلوك المديرة الجديدة و (صبيحة) تأنف ان تلعب دور الواشي بينما تتمادى (مدام دنيز) في غيها الى ان يجيئها يوماً احد المشرفين على ادارة المشغل فيزورها ويتحدث اليها في موضوع « مدام دنيز » فيقول :

– ولماذا لا ترسلين تقريراً توضحين به كل هذا ؟

لاني اخاف ان يحمل محمل الوشاية عليها ، وهي التي عينت بامركم رئيسة على الدار .

– ان هذه الاعتراضات السخيفة لايمكن ان تعتبر ذات اهمية بالنسبة الى المنفعة الشاملة المطلوبة . وانني اتيت الان لالح عليك بضرورة ارسال تقريرك .

« دخلت غرفتها واخذت تكتب التقرير ، فضمنته اراءها عن

الوجهات الفنية المتعلقة باسباب العمل . ولم تشر به الا الى القليل من الملاحظات الخاصة « بمدام دنيز » وان كانت في قرارة نفسها تود ان تكتب عن كل ما رأت منها وماسمعت عنها . »

ثم تروي كيف ان مدام دنيز نجحت في كسب الانصار بين موظفي المؤسسة الذين كانوا هم يتذمرون من سلوكها وكيف ان المدير الجديد نجح بحمل عضوين كانا من جملة الذين طلبوا اليها والحوا بالطلب لكتابة التقرير المذكور ، على المراوغة وتغيير الحديث ساعة كادت ان تظهر خفايا ما حدث فتقول :

وقال احدهم اخيراً :

– اخبرينا بما تريدين ، فنحن مستعدون لتنفيذه .

« فشعرت صبيحة بانفة تفيض من نفسها فتطغي على كل ما عداها من الاحاسيس ، تمنعها من استقصاء الحادث والمجادلة فيه فنظرت بازدراء ، واجابت بحزم :

– لااريد شيئاً البتة ، بل ارجو منكم قبول استقالتي من العمل.

« وهكذا صرفت من وظيفتها فتركت الدار متشحة بظلام العشي ، وعيناها عالقتان بالمكان الحبيب ، وقلبها مقطع منثور مزقا في جنباته وكانت كبش الفداء »

وجملة القول ان القارىء يخرج من قراءة قصصها بفكرة واضحة عن سياق الامور في بلد الكاتبة ويلمس بعض المشاكل التي يعانيها المواطن في هذا البلد وعن نواحي الضعف في مجال الخلق والقيم.

لقد فقدناها باكرا. حبذا لو امتد عمرها في الزمن فان من كانت تتحسس مشاكل مجتمعها بمثل هذه الروح الخيرة لابد اصبحت من عناصر البناء والدفع به الى الامام.

توفيت صباح الثاني والعشرين من كانون الاول سنة ١٩٥٧ وقد بكتها الاوساط النسائية بكثير من الحسرة. وكتبت اكثر رائدات الحركه النسائية والعديد من رجالات الفكر راثين الراحلة ومنوهين بفضلها وبفداحة الخسارة بفقدها.



جهان غزاوي عوني

جهان غزاوي عوني

١٩١٨ - ١٩٥٦

ليسمح لي القارىء ، قبل ان ابدأ سيرة جهان غزاوي عوني ، ان اضع هنا هذه المناجاة التي بدأت بها حديثي عنها في محطة الاذاعة اللبنانية يوم دعيت للكلام عنها ، ومحطة الاذاعة ذاتها ، وقد كانت ممن داوموا التحدث منها ، والاوساط الادبية كلها ما تزال تحت تأثير شعور الالتياع بفقدها، ولما يمضي بعد بعض الايام على وفاتها، ليسمح لي القارىء ، وكلنا لم ينس بعد جهان غزاوي عوني ، ان اعيد هذه المناجاة ، قلت :

« للهثاتك بعد نكهة الشذى يعبق من ثقوب هذا المذياع ، وقد سكبت فيه امس اخر ما وددت نشره في رحاب ديارك من خواطر صافيات ...

« في جوانب هذه الحجرة بعد لنبرات صوتك بقايا اصداء رخيمة احسها في هذه اللحظة اذ اجلس الى هذا المذياع حيث الفت الجلوس رائدة صادقة المطاوي ...

« في هذه الحجرة منك بقاء ، بل في هذه الحجرة انت يملاء وجودك زواياها ومطارحها ...

في الممرات منك في هذا البناء اطياف تروح وتجيء منطلقة في حيوية حلوة محببة ...

« فكيف السبيل للتحدث عنك راحلة لم يعد لها في هذه الدنيا وجود ؟

« كيف السبيل لان اضم طيفك هـذا الذي ينبض حياة ويختلج حسًّا الى اطياف اديباتنا اللبنانيات الراحلات في سلسلة تناولت سيرهن بعد ان انطفأ لهب الذكريات وغابت الاطياف في مجاهل الفناء ؟

« فالزوجة التي تفجر التياع الرفيق بعد انت ...

« والام التي يحس فراخها بقشعريرة العراء وبالاشتياق الى الدفء في ظل جناحيها ، ما زلت انت .

« والشقيقة يستوحش الاخوة لدفق حنانها ، باقية انت ...

« والوجه المضيء في دنيا الادب ها هنا انت ...

« الصبية تتخطر على مشارف الحياة ، في خاطرنا انت ...

« فكيف السبيل للتحدث عنك في لهب الذكريات ، والاطياف منك تلامسنا وتدانينا لاقرر مكانك في غياهب الماضي ؟

« حسبي ان امر في هذه اللحظات مروراً خاطفاً بسيرتك الومضة في دنيا الادب ، فاتوقف عن هذه المناجاة الحميمة لاستلهم وريقات جامدات ، واسجل ما في هذه السيرة من شؤون تعني الناس وتثبت شخصيتك الادبية ...

ولدت جهان غزاوي في طرابلس سنة ١٩١٦

وقد ظهرت منها دلائل الميل الى الادب وهي بعد صغيرة اذ كانت تسجل ما يراود ذهنها من خواطر ازاء مشاهد الحياة ، وما يهزها من مشاعر حيال معقداتها ، فتضعها بقالب قصة .

تعلمت في معهد الطليان في طرابلس . ولكنها اضطرت لـــترك الدراسة قبل ان تعب من مناهل المعرفة مـــا اشتهت نفسها ان تعب

بسبب وفاة والدتها واضطرارها للاضطلاع بشؤون البيت .

ولكنها ظلت تنكب على المطالعة وتتلمذ على نفسها حتى اصبح لها محصول ثقافي رفيع .

تزوجت سنة ١٩٤١ ، من السيد تحسين عوني ، مدير البريد في طرابلس حالياً ، وماتت في ايلول سنة ١٩٥٦ .

ولجت سلك التدريس سنة ١٩٤٦ فعلمت في مدارس طرابلس الرسمية .

كان لها اسلوب خاص في التدريس ابرز ما فيه ازدواجية في الصلابة بفرض احترام النظام وبالرقة والعاطفة في سياق تحقيق مهام التدريس بحيث كانت هي والطالبات كاسراب اليمام في ردهات المدرسة وفي فسحات الملاعب .

لم يظهر لها اي مؤلف مطبوع رغم انها انشأت العديد من المقالات القيمة في شتى المجلات الادبية « كصوت المرأة » و « الاداب » و « الرسالة » و « الاديب » ورغم وجود مخطوطات لها ، منها اول قصة كتبتها « الجوهرة الدفينة » ورغم انجاز القسم الاكبر من دراسة كانت تعدها عن مي عنوانها : « مي النابغة » .

اما حكايتها مع مي فحكاية قلب تجاوب مع الخلجات الانسانية العميقة الحس التي كانتها مي ، وحكاية العقل الذي التمعت فيه ومضات من يراع مي في تفتيشها عن الحقيقة فأمن بتلك الومضات ترتقص على معقدات المجتمع والوجود فشاءتها جهان المنارة المشرئبة في دجنة غوامض هذا الوجود ، ولم تطق ان يتناول مي احد بالنقد او التحليل .

وراحت لشدة حبها لمي ، واكاد اقول لتعبدها لها ، تحصي كل

ما يكتب عنها او يقال فيها ، فتنبري للرد مندفعة متحمسة غاضبة .
ولكي تبرز العلاقة بين الروح والطبيعة عند « مي » . راحت تدرس الفلسفة وهي تعد كتابها « مي النابغة » حتى تجيء دراستها متعمقة صحيحة .

اذكر اني تناولت كتاب مي « المساواة » بالتحليل في مقال بعدد التلغراف الادبي عنوانه « مفاهيم قديمة ومفاهيم جديدة حول كتاب « المساواة » لمي قلت فيه :

« ان اديبتنا الراحلة تتولى في هذا الكتاب بحث موضوع المساواة من خلال مناظير متعددة متلونه في مراحل التاريخ القديمة والحديثة .

« لكن النتيجة التي تنتهي اليها في هذه المقالات في المساواة ليست واضحة . وهي نفسها تعترف بذلك حين تقول بلسانها في الرواية الحوارية الخيالية التي جعلتها في كتابها قبل رسالة عارف تقول (اذا بالموضوع يعالجني قاذفا بي من تيار الى تيار . ومن حيرة الى حيرة . وها انذا اردد سؤالا القيته على نفسي مراراً خلال هذا البحث : اين انا الآن ؟ اين انا) .

فانبرت جهان للرد علي منفعلة متحمسة ، قالت .

« تمر مي امامنا تحت ضوء الطبيعة والعلم والتاريخ بالطبقات الاجتماعية منذ اسطورة الميتولوجية الهندية الى عهد الارستقراطية ، فالى زمن العبودية والرق ، فالى الديموقراطية ، فالى الاشتراكية السلمية ، فالى الاشتراكية الثورية ... تمر امامنا عارضة علينا باسهاب واناة وتفصيل تلك الطبقات وتلك الاحزاب ، عرض خبير حاذق يحار له عقل متخصص لم يأت من دهره الا التمذهب باحد هذه المذاهب المتضاربة بعد ان انحاز اليها انحيازا طاغياً . »

الى ان تقول :

« ثم تقرر بثقة (بان الغد للاشتراكية ، ولكنها ستغلب على امرها بعد ان تنيل الاجتماع ما تستطيع ان تأتي به من التعديل).

« اذن فالنتيجة التي انتهت اليها مي كانت واضحة كل الوضوح ، واذن فليس للسيدة املي ان تقول انها لم تنته الى نتيجة حاسمة ... لتقل انها لم تنته الى نتيجة ترضيها هي وتوافق عليها هي ، وهذالعمري ليس من شروط النقد في شيء . »

اذكر انني رددت عليها بمقال ثان اصررت فيه على وجهة نظري ، عنوانه « كلا ان مي في كتابها المساواة لم تكن واضحة » ردت هي عليه بمقال عنوانه « بلى ان مي كانت واضحة في كتابها « المساواة » ختمته بهذه الفقرة :

« ماذا بعد ؟ لقد بقي الكثير مما لم استشهد به من كتاب المساواة لارى الناس بان مي لم تك قط غامضة في كتابها هذا - واخشى ان انا فعلت ان تستغرق مناظرتنا هذه سنين طوالا يسأم الناس من هذه النغمة ... لذلك اجتزئي بهذا القدر واحييك تحية سليمة » .

كما انها تناولت كتاب جميل جبر« مي في حياتها المضطربة» بالنقد اللاذع . وفي رسالة بعثت بها الى الانسة سميرة عزام في السادس من حزيران سنة ١٩٥٥ قالت :

« ان دراستي لمي »ترجع الى سنوات خمس جمعت فيها كتبها الاربعة عشر مع مجلدات عدة لمجلات «الهلال» و«المقتطف» و«الرسالة»و«المرأة الجديدة» وما قيل عنها وفيها اثناء زيارتها للبنان سنة ١٩٢٢ وما قيل عنها وفيها ايضاً خلال نكبتها يوم حجر عليها ، وما قيل عنها وفيها بعد موتها الباكر .

« اما رسائلها لجبران وقد كانت في متحف بشراي ، فلم يسبقني اليها الا اديب واحد اجهله حتى الان هو الاستاذ حليم كنعان ، هذا الاديب الذي ما كاد ينشر دراسته عن الصلة التي بين جبران ومي في كتيب هزيل الحلة جزيل الفائدة حتى تلقفته يدا (......) فحورتا فيه دون اية اشارة الى المصدر الحقيقي .

« اما بقية رسائل مي وجبران فهي محفوظة عندي مع صورة جميلة لمي في طفولتها وكذلك بضع بطاقات ارسلتها مي لجبران في بعض الاعياد تتجلى فيها نفسها الكبيرة وفلسفتها في الحياة ورأيها في فن جبران .

« اما تلك الطفرة البائسة اما ذلك الكبت المضني فلم المح له اثراً في كل ما كتبت مي ، واما ما قاله الادباء اللبنانيون عن مي فكثير لا يمت الى حقيقتها بصلة ، لقد قال فريق بشذوذها واتهمها بانها لم تحب احداً حتى ولا جبران .

« وقال فريق آخر انها مسترجلة اتقنت كل شيء الا ان تفتح قلبها للحب . وقال فريق ان سبب جنونها المباشر هو ان احد اقربائها سرق منها رسائل جبران . وقيل وقيل وليت هذه الاقوال صدرت عن اناس لا يعيرون اذناً للاقاويل ، اذن لهان الامر ولكن هذه الاقوال وامثالها صدرت عن ادباء لهم وزنهم في العالم العربي.

« اجل يا عزيزتي سميرة هناك من اتهمها بجفاف العاطفة وجمودها والتواء الناحية الجنسية عندها ، وهناك من ادعى انها مائعة متطيرة لدرجة انها جنت عندما سرقت منها رسائل جبران ، كل هذا ولم يكلف احدهم نفسه عناء درسها من خلال ادبها .

« إن عالمنا الادبي يا عزيزتي ليمثل عالمنا الاجتماعي والسياسي

اجمل تمثيل واصدقه ، ان صورة حياتنا لتنعكس انعكاساً عجيباً على مرآة ادبنا . اننا ضائعون تائهون لا نعلم كيف نذهب وكيف نجيء . اننا وسط تيار جارف يسير بنا الى التهلكة لكننا مع ذلك لا نكلف تفكيرنا شيئاً ولا نلزمه التروي والموازنة .

« هذا واتهام مي بالجنون وذلك الحجر للاستيلاء على مكتبة مي الثمينة من قبل اولاد عم لها وفلسفة مي العميقة وتعاليها على سوداوية العانس ، واقرار صديقة لي متأدبة كانت ممرضة في مستشفى الطبيب ربيز حينما نقلوا (ميا) اليه يؤكد ظني بانهـــا لم تكن على شيء من الجنون مطلقاً ، وانما كان مرد اصرارها على الاضراب عن الطعام وعن مواجهة اي كان من الناس حتى خلصائها، كان مرده الشعور الصارخ، كاية شخصية مثالية ، بامتهان كرامتها على هذا الشكل الالـــيم وبتعريض سمعتها الغالية للاقاويـــل - هي التي كان ظنها بالبشر خيرا كله .

« كل هذا مع حبي الشديد لهـا واعجابي بعبقريتها اكثر من اي اديب معاصر ساعد على ان اخذ عهدا على نفسي بانني سأكون تلك التي تدافع عن مي دفاعاً صادقا .

« وقد بدأت فعلاً بالكتابة عن حياتها كما يكتب المحموم وقد اوشك على النزع لاستشعر الراحة والطمأنينة وكنت لكثرة مادرستها واعدت تلاوة كتبها ورسائلها اراها في احلامي ، غير اني في تلك الاثناء نفسها كنت حاملاً على اهبة الوضع فـــما كاد يحين الوضع حتى اطبقت مؤلفي الحبيب وكاني اطبقت معه ملف حكم الاعـدام على شخصية بريئة . اجل لقد اطبقت مؤلفي الى غير رجعة قريبـــة وانهمكت حتى اذني في شؤون الامومة وفي شؤون اخرى متشعبة

الطرق ملتوية الاهداف اظل ابداً ناقمة عليها لانها لا تتيح لي الفرصة للكتابة حتى ولا لفترة نصف ساعة من كل نهار ... الخ » .

واما قطعتها « انبعاث » في مجموعة « اقصوصة في نفثات » فتطلق في خاطري ، كلما عاودت قراءتها طيف جهان ذاتها في دائها الذي ما رحم شبابها وفي هنيهات الليالي الطوال المضنية ، الموحشة فتشد الغصص على عنقي واحس بالعبرات تدفق الى محاجري ، فلنقرأها في قطعتها « انبعاث »

« كان على هذه الصغيرة الوحيدة ، الطرية الزغب ، المهيضة الجانحين ، العملاقة التفكير ...

« كان عليها ان تعيش كيفما اتفق ، لان العيش محتوم عليها ويا للاسف ، ولان في ذلك – كما يبدو – صوابا لا بد لها من الانحياز اليه ، شاءت ذلك ام ابت .

« كان عليها ان تعيش مهما كلفتها نفسها من عنت وتأبي ، وكان عليها كذلك ان تعد نفسها لهذه الحياة اعداد من اصر على امر لا بد من تنفيذه .

« ملقية بما في عقلها الناسخ من رواسب الكوارث المتتابعة ، مفيئة الى واحة عمتها – الهام – التي طالما شددتها منذ ان كانت طفلة تحبو – بسماتها المميزة –

« كما تفيء صغار الدجاجة الى جناحي امها الدافئين . وهي ما اعتطها هذه الثقة البالغة ، لو لم تعجب اعجاباً بالغاً بروحها الثرّة الدائبة الانتفاضات ، المليئة بالحنان الجزل .

« هذا الحنان الذي تحمله لكل ما هب ودب على الارض .

« فكان قلبها على صغره ، قد وسع الدنيا وما في الدنيا

جميعاً .

« لذلك ما ان تراها موفورة النشاط لتلقي القيم التي لا يأبه بها احد ، وان كانت تعلم مقدماً ان نتائجها قد تكون غير ايجابية دائماً .

« فهي كانت تعتقد مثلاً بان الجمال كل الجمال في ان يعطي المرء دون ان يأخذ .

« وان الكمال بجملته ، هو الايمان الخارق بخالق واحد مقتدر وان الحق الذي لا مراء فيه ، هو الا تتيح لنفسك اكثر مما تقدر ان تتيحه للناس من طمأنينة وهناءة .

« وان الخير في ان تفعله دون ان تمن به حتى على نفسك لترضي انانيتك .

« وان المحبة تسبيح ازلي ابدي ، لا يمكن ان يتدنى الى اسفل .

« وان السلام في ان يحمل الانسان قلبه على كفه ليقدمه خبزاً طيباً يعيش على فتاته الجائعون .

« اجل لقد فاءت الى تلك الواحة الظليلة مطمئنة اليها بعض الاطمئنان .

« ولكن اعتبارها الشخصي ، الذي الزمتها اياه طبيعتها الخلقية وتربيتها السلمية بما فيها من مؤثرات وتأثرات – كل ذلك ما كان ليتنحى دقيقة واحدة عن انطباعات يفاعتها هذه .

« فهما في اخذ ورد ، وجدل مستمر لا يستقران او يتهادنان .

« يبدو ذلك في هذه التشاؤمية التي لا تكاد تبارح نفسها قليلاً ، حتى تعود فتظهر في اقوى واعنف صورها الساخطة حتى اذا قيض لها ان تهدأ بعد لاي وارهاق اعصاب واستسلام وتعب لاذت صغيرتنا

الى سكون طويل – طويل كليالي الشتاء المزمجرة .

« وتلمست في عتمة الامسيات المرورة ، ذلك السرير الحبيب الذي كان يبعد عن سريرها خطوتين او ثلاثا .

« لتنطرح عليه متثاقلة ، باكيـــة ما وسعها البكاء المختنق ، مستكينة الى ذكريات الطفولة «طفولتها السعيدة » ما وسعتهاالذكرى المطاطة .

« حتى اذا ما صدف ان القت نظرة عابرة على يديها ، احست كانهما تتشنجان ، وتحتقنان ، وتلتهبان ..

« تمـــاماً كيدي امها حينما كانت تحت تأثير نوبة الاحتضار ، وكانت هي الى جانبهـــا وحدها لا ثالث بينهما الا اخاها المستسلم احلامه .

« اجل وحدها كانت ، وكان من في المنزل قد اووا الى مضاجعهم. حتى والدها ...

« والدها ، ذلك الذي طالمـــا تقدست زوجته على يديه والذي كثيراً ما قدم لها قرابين التعبد مكبراً خاشعا .

« كان – كما لاح للصغيرة آنذاك – قد سئم هذا المرض الطويل الذي تشكوه زوجته ، بعد ان انفق في سبيله المال الكثير دون ما جدوى .

« فانتحى لنفسه غرفة ليست ببعيدة عن غرفتهـا ، ليأخذ لنفسه الراحـة المرجوة ليلاً .

لانه – كما كان يردد معتذرا – يريد ان يقوم باود عيلة كبيرة ، دون ما اجتهاد ، حتى اذا ما احتاجت اليه ليلاً ، يمكنها ان تطرق الباب الذي يفصل بين غرفتيهما ليلبي نداءها للتو .

« ولكن الصغيرة الذكية التي كانت تحصى على اهل البيت كل كبيرة وصغيرة دون اي تعليق او اشارة ،

« كانت تحس في صميمها اشمئزازا لهذا الذي يجري امامها .

« اشمئزازاً طاغياً حرك في قرارة نفسها كبرياءها الانثوي واتى على البقية الباقية من هذا الاطمئنان الرخي

« الذي كانت تحسه في تدليل ابيها لهـا ، وفي تدليل اهل المنزل جميعاً .

« ان هذا لمواربة دون شك ، وانه لزائل حتما لدن تضعف يومـاً او تمرض ، اوتهن ، او تقبح صورتها .

« فما معنى هذه المهارأة اذن وما الداعي اليها ؟

« ومن هنا تعلمت الصغيرة ان تكون قوية الشكيمة تفتش عن جوهر الامر قبل ان يغريها بريقه .

« ومن هنا بدأ عندها الشك الظالم ..

« وعلى هذا الاعتقاد استنام حبها الكبير للحياة وظهر في اقوى عناصره لهذه الام الانوف ، التي كانت تلاحظ هي انها تقاسي الامرين: المرض والخيبة ، انها في صمت الابي الذي لا يألو جهداً في تمويه الحقائق ليرضي كرامته ...

« ولا جل هذا ، لم تطرق باب غرفة ابيها مرة في ليلة من الليالي. ولا طرقته كذلك امها ... لقد كانت تقضي الليل بطوله الى جانبها دون ان تدعها تعترض او تستهجن : – وما في هذا يا امـاه ؟ اني لا شعر بالدفء الى جانبك ولقد طالما تمنيت ان اقاسمك فراشك في ليالي الشتاء القارسة ، واني لاجد طمأنينة مغرقـــة في ان استمع لانفاسك الحبيبة ، وان اتأمل وجهك اللطيف كانما وجه ملاك كريم..

اوه دعيني .. دعيني بالله . اصارحك بانني احبك اكثر ممـــا يحب الاولاد امهاتهم »

مسكينة جهان العليلة ... فبكم من هذه الهنيهات المضنية مرت في لياليها الموحشة ؟

مسكينة جهان العيية تنهار احلامها العذاب وترتطم فتوتها على صخرة مأساتها في دائها ذاك !

انها ستظل معنا وفينا حس يختلج وحرف يؤدي .

فهرست

